أسماء عرفة

أراك في حُلم قديم

رواية

دار دوّن

إهداء

إلى كل من يكتُمون السر

ويترددون في البَوح...

Page 1 of ٧٣ / ٣

«الناس لا تبوح بأسرارها للأصدقاء، وإنما للغرباء، في القطارات أو المقاهي العابرة»

بهاء طاهر

إن كنت مُخيرًا فسأختارك وإن كنت مُسيرًا فسأسترق النظر إليك..

بطل الحكاية – قاسم سليمان

ما قبل كل شيء..

حلم صار يدفعه إلى النوم أكثر من الاستيقاظ، يرى قاسم نفسه وهو يسير ناحية درج كبير استعدادًا للنزول، لكنه لا يعرف إلى أين، والغريب أنه يسير رفقة شخص ما، رفقة فتاة لا يستطيع تمييز وجهها بوضوح، يحمل تجاهها مشاعر كثيرة مختلطة ما بين الأمان والطمأنينة، والرغبة في انتزاع سعادة العالم كله بين كفيه، فتاة تحثه على المضي قدمًا ناحية شيء مجهول لكن قلبه يدفعه للقبول، يدفعه للإمساك بيدها حتى لو لم يرى وجهها بعد، وكأن ثقته في العالم كله قد تجمعت فيها.. لكنه لا يستطيع الاستسلام دون رؤيتها.. فيقترب أكثر كي يراها.. لكنها برغم قُربها لا تنظر إليه ولا تسمح له بالتعرف إليها.. يقترب ويقترب حتى تتلاشى الصورة تمامًا.. فيستيقظ قاسم ناظرًا إلى سقف الغرفة الذي يعجز عن الإجابة عليه في أشد لحظات حاجته للسؤال!

***

اليوم هو الثلاثاء الأخير من الشهر، وأميرة تعد الساعات لعودته، تقطع الغرفة ذهابًا وإيابًا دون أن تحيد نظرها عن تلك الساعة البنية المعلقة على الحائط، والتي تغضبها بشدة في كل مرة تُعلن فيها عن دقيقةٍ جديدة دون وصول قاسم.. لقد أخبرها في رسالته الأخيرة أنه سيعود يوم ثلاثاء إن شاء ربه، إلا أنه لم يقل أي يوم ثلاثاء بالتحديد، أهو القادم أم ما يليه، ولهذا اكتفت بالانتظار رفيقًا لها دون أن تطالبه بشيء.

يأسرها حضور قاسم رغم أنه يحمل الكثير من الربكة والخجل، فهو جمهورها الوحيد في تلك المدينة القاسية أسيوط، المدينة التي تُعيقها عن خوض رحلة

Page ٤ / ١٧٢ ما قبل كل شيء..

الأحلام التي تسيطر عليها كل ليلة، وحين يأتي النهار تعلم أن لا شيء سيتحقق، لكن ذلك لم يمنعها من المحاولة.. وفي اليوم الذي شاء فيه القدر أن تُكمل دراستها كان قاسم أول من هنأها على ذلك، أول من جلب لها الكتب والمراجع القديمة التي احتفظ بها طوال سنوات دراسته حتى صارت مكتبتهما واحدة، ومنزلهما يحوي نفس الأوراق التي تتناثر في كل مكان.

تنظر إلى عقارب الساعة في هدوء هذه المرة، بينما تتذكر كل لحظة قلق مرت عليها حين اتخذت هذا القرار، رغم أن جميع من حولها حاول دفعها للسير في التيار المعاكس، فلا تنسى تعبير وجه قاسم والفخر الذي ملأه حين علم أنها ربما يومًا ما سوف يكون لها شأن عظيم، مثلما كانت تحكي له وهم صغار يتجاذبون الورق الذين يدرسون فيه لدى كُتاب «الشيخ أمين» حتى يتمزق، ويصل صوت تمزقه إلى أذني الشيخ فينهرهما بشدة، وحين تدمع عينيها من الخجل يتدخل قاسم معترفًا للشيخ بأنه خطأه وحده، وأنه سيعكف على نقل المكتوب في الورق بالكامل تعويضًا عمّا حدث للتو، ويا لسذاجة هذا الشعور وحلاوته في آنٍ واحد.. ما إن فعل ذلك حتى نال نصيبًا أكبر من قلبها، وأصبح الممثل الوحيد للبطولة في حياتهما البسيطة جدًا، ومنذ وقت نبوغها في الدراسة أصبحت لا ترى أمامها سوى الغد وأحلامه، بينما يعزيها في تَعب الرحلة حكاياته التي لا تنتهي طالما أنه يمتلك قلمًا وورقة.

كان قاسم كاتبًا موهوبًا وكانت أميرة تشجعه على الكتابة في الإطار المسموح به للحديث بينهما، فما إن كبر الأولاد حتى انفصل الجيران عن بعضهما وابتعد المنزل عن المنزل المجاور له، صارت الأبواب تُغلَق بعد أن كانت مفتوحة على مصراعيها أمام الجميع، إذا حاول أيٌ منهما تخطي تلك الحدود كما كانا يفعلان

في صغرهما يجدان الأهل في المواجهة، ظل الأمر هكذا حتى اعتادت أميرة عليه وفهمت أنها صارت من الـ «ولايا» كما يقول أبوها وهو يبرر لها سبب إغلاق الأبواب ووضع الحدود الجديدة، مع الأيام صارت تتأقلم حينًا، بل وتستمتع حينًا آخر بالفكرة.. بكونها فتاة يخشى عليها أبوها وأمها، خاصة أن ذلك لم يمنعها من خوض تجربة العمل في نهاية المطاف، بعدما سمحوا لها باستقبال الأطفال في المنزل كي تعينهم على استذكار الدروس مساء كل يوم، إلى أن استطاعت أن تحيا أفضل أيام حياتها وأن تثبت لنفسها قبل أي أحد أنها قادرة على إكمال هذا المشوار الصعب لفتاة في مثل عمرها.

تتوقف الساعة عند الثامنة مساءً فتعود أميرة من شرودها.. وهنا يتسلل إليها صوت قاسم وهو يقترب من باب منزلها بعدما تبادل التحية مع أحد المارة في الشارع. تنظر إلى والدتها وكأنها تنتظر أن تأذن لها قبل أن تفعل أي شيء، منذ توفي والدها وهي تحاول أن تمنحها هذا الشعور الذي حُرمت منه في حياته.. لكن الأم تبادلها النظرة في حنانٍ بالغٍ لا يعني شيئًا سوى أنها تحثها على الإسراع بفتح الباب وإلا نهضت هي لتفتح بدلًا منها، وعندما اطمأن قلبها للإذن والمباركة من الأم انطلقت ناحية الباب وفي يدها يَشمك رمادي تحاول فك عقدته في هدوء مصطنع يغلف توترها قبل أن تضعه على وجهها بإهمال وكأنها تقصد ذلك ولا تقصده في نفس الوقت.

ما إن انفتح الباب وطالعها وجهه الدفيء المألوف في فرح بعدما طال غيابه كثيرًا، وبينما تتفحص سترته الزرقاء التي تستقر فوق القميص الأبيض والتي لم تزر مثيلًا لها في مدينتهم، بادرها بالحديث لدى رؤية عينيها مبتسمًا:

- هل طال غيابي عنكم؟

(١)

قضى قاسم ليلته الأولى إبّان العودة من القاهرة في الحديث إلى أميرة وعائلتها الصغيرة التي احتضنته لسنوات، فالذكرى الوحيدة التي لا تُمحى من ذهنه حتى وإن حاول، هي ذكرى اللعب على عتبة هذا المنزل، والجلسة الهادئة على منضدتهم الخشبية المهملة أمام بقية الأولاد، ليقص عليهم قصة قصيرة من نسج خياله، ورغم أنها كثيرًا ما تقابل بالسخرية والتوبيخ من ناحيتهم إلا أن الابتسامة على وجه أميرة كانت كافية أو هكذا كان يقول لنفسه حتى يُعينها على الصبر لحين ابتعاده عن تلك المدينة، والسفر للدراسة في قاهرة المعز.

رغم السفر لم ينسَ ما تركه وراء قلبه وعقله، لطالما كان يتذكر كلمات أميرة وهي تودعه قبل الرحيل.. تخبره ألا ينطوي على نفسه.. توصيه ألا يتوقف عن الكتابة لأي سبب من الأسباب لأن وِحدة العقل أشقى مما يظن، ولأنها تعرفه جيدًا وتخشى عليه من ظلمة المدينة الواسعة التي سيعجز فيها عن بناء صداقة مع أحدهم. حتى إنها منحته المصباح الكيروسيني القديم الذي كانت تستذكر دروسها عليه قبل سفره بيوم، وجعلته يقطع لها وعدًا أن يكتب قصة في كل مرة يعمد إلى ملئه بالكيروسين، وألا ينظر إليه على أنها مصباح فقير أو أن تبهره أضواء المدينة.. إنما يعتبرها رسالة خاصة متجددة بأنها في انتظاره مهما طال الغياب..

جلس قاسم معهم قرابة الساعتين ونصف الساعة يحكي عن تفاصيل الحياة في القاهرة، وكيف أن الزمن هناك يدور أسرع من أفكاره البسيطة، وأنه كان يواجه الوحدة بالسير ليلًا في شوارعها حتى يعتاد عليها وتعتاد عليه، إذ لم

يستطع التقرب من أحد فالجميع هناك لا يتحدثون إلا في السياسة، ودائمًا ما ينتهي الحديث بعراكٍ غريب إثر تدخل أحد الطلبة الأجانب في النقاش، مما يتسبب في انتهاء الفكرة قبل التطرق إليها حتى، فمنهم من يرى البلد في أحسن صورها، ومنهم من يرى أن الإنجليز يفسدون فرحتهم بأي شيء كان، منهم من يذم سعد باشا زغلول وينهره على خطواته الثائرة، ومنهم من يقطع الطريق غاضبًا وينصر الزعيم من وجهة نظره، بل ويتمنى أن تقوم ثورة أخرى تزيح الغم والبلاء عن البلد بأكملها، أما النصف الآخر من تلك الطبقة التي تختلف عن أي طبقة عرفها قاسم طوال حياته، فكانوا لا يتحدثون إلا في صيحات الموضة، ويتشاركون الرأي ذاته في أن باريس عاصمة الجمال، وأن كل منهم سيسافر إليها فور انتهاء الدراسة كي يستسقي المزيد والمزيد من هذا الحس الراقي في الملابس، فقليلون من كانوا يعبئون للأدب والعلم مثله، وكثيرون من كانوا يعتبرون الجامعة مرحلة وستمر طالما أن أحلامهم مجابة بالفعل.

انتهى من حديثه وسط دهشة أميرة وأمها، بينما استمر كل منهما في تفحص السترة التي يرتديها قاسم خاصة بعدما أخبرهم أنهم يدعونها «صدرية» وأن جميع الشباب في القاهرة يرتدونها، ثم أخرج من حقيبته بضع أوراق وأخذ يلوح بهم في وجه أميرة التي اتسعت ابتسامتها في فرح حين أخبرها أنه انكفأ على الكتابة لأيام كما وعدها تمامًا، وأن ما يحمله بين يديه هي بدايات قصص ونهايات قصص أخرى سيقرأها عليها إن أرادت في يوم من الأيام، ورغم أنها لم تصرح له بنيتها في فعل ذلك إلا أن حماسة العودة جعلته يتخلى عن حساسيته المعتادة ويتولى زمام الأمور ولو لمرة واحدة.

طال الحديث بينهم إلى أن دعته والدة أميرة إلى العشاء.. بعدها استطاع أن

يأذن لنفسه كي يعود للمنزل ويأخذ قسطًا من النوم الذي حُرم منه لفترة طويلة، غادر وهو على وعد بالزيارة من جديد، وعلى وعد باستعادة الوصال الذي انقطع إثر الرحلة الطويلة التي قضاها بعيدًا.

***

طالما كانت أمه تجلس بانحناءة ظهرها تمسك في يدها بَكرة صغيرة تلتف حولها الخيوط السوداء وفي اليد الأخرى إبرة كبيرة الحجم تخترق بها ثقوب قماش رمادي داكن لجلبابٍ قديم.. بينما يجلس الأب وصاحب الجلباب على الأريكة في انتظار انتهاء تلك المهمة الدقيقة.. وما إن يدركان قدوم ولدهما من الخارج حتى يناديا عليه في وقتٍ واحد، رغم أن كلًا منهما يعلم أن طلبه ليس بعاجل. لكنهما يتسابقان في فعلها على أية حال. وحين يستجيب الصغير في خمول بادٍ عليه يجذبه الأب من يده في حنان مستتر وينفض عنه غبار الشارع الذي يغطي بقاعًا مختلفة في بنطاله حتى يستقر بيديه الاثنتين على كتفه ويقترب منه هامسًا:

- انتبه لنفسك يا قاسم، فالرجل لا يسير هكذا دون الاهتمام بهيئته..

وحين تتدخل الأم كي تخفف عنه عبء الخجل والهم المخالطين لبعضهما في زحام أفكاره.. ينهرها الأب في قسوة مصطنعة؛ كي لا تضطره لإعادة الحديث مجددًا. وعندها يتدخل الصغير بفطنته وفطرة أجداده كي يفض النزاع وينفض الغبار عن ثيابه في استجابة سريعة حتى ترتسم الابتسامة على وجه أبيه من جديد.

عاد قاسم من شروده ليتضح المشهد الحقيقي من حوله.. اختفت صورة الأم

الجالسة على الأرض وتبدلت بمقعد صغير فارغ ومن تحته بساط خشن يؤدي عمله في هدوء منذ سنوات عديدة.. أما الأب فظلت صورته تخفت أمام عينيه حتى تبددت تمامًا وتبينت له الأريكة وهي تعمل عمل المكتبة الصغيرة فتحتضن عددًا من الكتب القديمة التي ظل يجلبها إلى هنا في نهاية كل عام دراسي.

وما إن خطت قدماه غبار العتبة السوداء لمنزله القديم وأغلق الباب من خلفه حتى تطاير الغبار الكثيف ليشكل سحابة ضبابية كبيرة جعلته يعجز عن رؤية أي شيء بوضوح.. فألقى بالحقيبة على الأرض في حركة لا إرادية، وإذا بورقتين صغيرتين تتمردان على بقية الأوراق وتسقطان خارج الحقيبة فينحني أمامهما رغمًا عنه وقبل أن يعيدهما إلى مكانهما، يتفحصهما بعينيه جيدًا لكنه لا يتذكر أنه رآهما في حياته.

***

الورقة الأولى:

«دَفتري العزيز..

أكتب بكِ لأخلد تلك الذكرى السعيدة، فاليومُ هو يومي الأول في رحاب كلية الآداب بجامعة القاهرة كما أحب أن أدعوها.. وأقول هذا لأنهم لم يستقروا على المسمى النهائي لها وأنها ربما تعود إلى تعريفها السابق الذي ترسخ في عقول المصريين من قبل، لكنها رغم أي شيء كانت ولا تزال حلمًا لشباب مثلي يرغبون في تجربة الحياة خارج أسيوط، خاصة لو كانت التجربة في قاهرة المعز، بكل ما نسمعه عنها، وتذهب عقولنا في كل مرة.. فقد كنت أتتبع تطورات تلك الكلية والتي لم تكن كلية مستقلة حتى نهاية العام الماضي، وإنما كانت مجرد قسم من

أقسام الجامعة الأهلية التي تعتد بالدراسات الأدبية كأحد أهم الدراسات وتنتشر فيها الأحاديث والجلسات الثقافية التي تجمع المصريين بالأجانب جنبًا إلى جنب في طلب العِلم والمعرفة. إلى أن بدأت الحكومة في التحرك وحدث تداول حقيقي بهذا الشأن في القصر الحاكم كي يجري تحويلها إلى كلية مستقلة لها طابع حكومي يمكن للشباب أن يدرسوا الآداب فيها بشكل أكثر منهجية، لحين إشعار آخر.. وبالنسبة لي فقد كان الأمر كافيًا بشكله القديم، فأنا لم أكن من النوع الذي يعشق التعليم بالمواد التقليدية كلها وينكب على الدراسة مثل أبناء الأثرياء الذين يدرسون أملًا في السفر للخارج، حيث كانوا يبذلون الغالي والنفيس في سبيل ذلك، وإنما كنت أسعى لشيء آخر دائمًا، كنت أريد المكان الذي يمكنني فيه أن أقرأ وأكتب، أقرأ من تجارب غيري ما يؤهلني لعيش تجربتي، وقد اعتبرت ذلك المكان - كلية الآداب - هو نافذتي على فعل ذلك..

أذكر جيدًا كيف كان أبي يسخر من عزلتي ووقتي الذي أخصصه للكتابة عن افتقادي لأمي، وعن رغبتي في رؤيتها ولو لمرة وحيدة قمت بتجسيدها على الورق، فطالما كان ينهرني قائلًا: حرك قدميك يا قاسم وافعل شيئًا يفعله الرجال!! أي كتابة تلك التي تريد أن تمتهنها؟ كنت أغضب وأثور وأنا أجيب في خُلدي: إن الكتابة هي النافذة التي يمر عليها غبار الصيف وأوراق الخريف وعواصف الشتاء ونسيم الربيع جميعهم وتظل مفتوحة على مصراعيها، لا تهتز ولا تهدد بالسقوط، وإنما تستمع إليهم وتعبر عنهم في سكون دائم باختلاف الأيام!! إنها ما يعينني على تحمُّل الحديث إلى الغرباء، فكيف لي ألا أحبها؟! ورغم أنني خشيت البوح له بذلك حتى لا يسخر مني بالطبع إلا أنني كنت أتمسك بموقفي على الأقل وتتملكني حماسة الشباب وأنا أجيبه:

- يا أبي، إن أفضل المؤرخين والعلماء والكتبة خرجوا من البلد التي تعيش فيه، ليس ذنبي أنك لا تعرف اسمًا من أسمائهم لأنك قضيت أكثر من نصف عمرك تعمل في مصنع واحدا!..

لكني أعجز عن الصمت في نهاية المطاف وسرعان ما أعي وقع ما قلته من أثر ضربته السريعة على رأسي، وهو يصحح لي في غضب:

- بل عمري بأكمله يا ولد.. هيا انهض وإلا مزقت تلك الأوراق وأجبرتك على التهامها.

رحمه الله.. كان قاسيًا لكنه كان معطاءً ولا أنكر موافقته على مشروع أحلامي رغم كل ذلك، وعلى تحمل السفر من أسيوط إلى القاهرة ومن القاهرة إلى أسيوط في رحلة استكشاف للمكان الذي سأمكث فيه طوال فترة دراستي القصيرة من وجهة نظره؛ لأنه يظنني طفلًا عنيدًا لا يرغب سوى في تجربة الأمر الذي سيشعر بالملل تجاهه دون أدنى شك، لكنني لم أكن مستعدًا لمزيد من الجدال. وخرجت من رحاب مدينتي حالمًا كما أنا.. خرجت وأنا أعرف أن محاولاتي البائسة في كتابة القصص هي المنفذ الوحيد لروحي، هي الصديق الذي يتحمل صمتي ولا يسألني عما أشعر، بل ينتظر وينصت ولا يكلف نفسه عناء التعليق حتى.. رغم أنني كنت أندم ندمًا شديدًا عندما يقرأها أحد غيري لأنني لا أسلم من تعليقاتهم اللاذعة ولا أقوى على الرد عليها، فأنا لا أؤمن بحقهم في الرد عليها، أنا حر أنفع نفسي أو أضرها، وأثق تمام الثقة من أنني يومًا ما سأجد ما أبحث عنه.

ينتابني الحماس الشديد وأنا أستيقظ اليوم استعدادًا للسفر والتعرف على

حياة الجامعة التي ستمكنني من الاستماع إلى الشيء الوحيد الذي أحبه، الروايات والكتب بمختلف أنواعها، وأعلم أنني سأخوض تجربة عمري، وما إن أصل لأجمل مدينة في العالم سأقطع وعدًا على نفسي ألا يعيدني أي شيء إلى هنا، أو ربما سأفعل ذلك من الآن..

لقد اختلفت القاهرة حقًا عما رأيتها آخر مرة!، فقد جئت هنا وأنا لم أبلغ الرابعة عشرة بعد وها أنا بعد ثلاث سنوات أحقق حلمي بالعودة، أسير في طرقات واسعة في كل مكان، ولا أعلم من أين يأتيهم كل هذا البراح والوفرة في كل شيء، على عكس أسيوط تمامًا والتي أشعر فيها أن قلبي لا يهدأ في مكانه وكأنه يريد التعبير عما يدور في خلدي من ضيق ورغبة في الخروج، أنا خلقت لهذا المكان ولذا سأحمل ما أملك من أوراق رفقة قلمي النحيل وأجلس لأدوّن كل ما أراه هنا، وكأن كل زيارة هي المرة الأخيرة لي، وكأن طريق الجامعة هو طريق ذهاب بلا عودة، هكذا يسير كل شيء في حياتي على أية حال، وليد اللحظة لا يمتلك أي ضمانات سوى الحظ الجيد الذي يدخره لي القدر.. والذي أتمناه لنفسي..».

***

الورقة الثانية:

دفتري العزيز..

إنه أنا مرة أخرى.. كيف للأيام التي تروق إلينا أن تمر بهذه السرعة!، إنني أعمد إلى الكتابة كل يوم وأفشل في التعرف على صديق آخر يومًا بعد يوم، أما الدراسة فهي الملاذ الوحيد.. أم أقول إنها الملاذ الآمن الوحيد.. ربما مع كوب

الشاي الذي تتراقص عليه وريقة من نعناع رطب فيمنحاني بعضًا من نفسي التي لا أجد، والشيء الأهم الذي ورثته عن أمي..

كانت - رحمها الله - مثل السمك الذي لا يغادر البحر إلا ميتًا.. ومنذ الليلة التي وعيتها فيها، لم تتخيل حياتها أبدًا بعيدة عن أسيوط، بعيدًا عن منزلنا الفقير.. والذي كان يبعد سبع أو ثمانية بنايات من قصر الباشا الشهير.. والذي كانت تخبرني أمي بحكايته كل يوم، حتى حفظتها عن ظهر قلب، واحتفظت بصورة للقصر نفسه داخل مخيلتي، حتى تحولت أحلامي الصغيرة لحقيقة مبهجة في اللحظة التي سمح فيها أبي أن ألعب مع بعض الأولاد بعيدًا عن منزلنا، حينها تمكنت من رؤية القصر عن قرب كما كنت أتمنى دومًا.. كان يلمع زجاج نوافذه من بعيد، تحيطه الأشجار من كل مكان. أشجار مهيبة لا مثيل لها في بلدتنا.. مثلها مثل القصر.. لا شيء يشبههما في بلدتنا. كان مشهد القصر والأشجار جليًا كقصور الروايات النادرة.. ولا يسمح لأحد بالاقتراب أو اللعب أمامه؛ حتى لا يفسد منظره المتكامل في الهيبة والوقار، لا يمكنك سوى اختلاس النظر عن الحاشية المرافقة لأي ضيف يدلف إليه، أما الضيف نفسه فلم نكن نعرف سوى أنه رجل في غاية الأهمية لا يقل عن مكانة صاحب القصر.. مراد باشا آزاد.. ربما سأكتب عنه ذات مرة»

مذكرات قاسم سليمان ١٩٢٠

***

إلى هنا انتهى قاسم من قراءة الورقة الثانية بعدما تعرف عليها، وأدرك أنهما جزء من مذكراته.. وأنه لم يكتب بعد ذلك صفحةً ثالثة أو رابعة أو أخيرة،

مرت الأيام والسنون.. مر العمر عليه مع أعوام الدراسة كلها دون أن يتمكن من استكمال حكايته الخاصة على الورق، رغم أنه كتب الكثير من الحكايات الأخرى، أما حكايته هو.. فلطالما كان هنالك عائق يقف أمامه.. يقف حاجزًا بينه وبين حلمه في كتابة شيء مر به، شيء من تجربته الخاصة حتى وإن كانت مؤلمة، ولحَظُه العسر كان حلمه هو أحد الاشياء التي لا تكتمل أبدًا! حتى اليوم الذي بدأ فيه كل شيء، يوم عودته الذي لن يكون عاديًا كما ظن، وإنما سيكون بداية حلم صغير تربى في ركن خفي من أركان عقله.

***

ما إن انتهى شريط ذكريات قاسم من المرور أمام عينيه ببطء، حتى تسلل إلى مسامعه صوت خطواتٍ هادئة لأقدام لا تبدو في عجالة من أمرها.. حاول الإنصات قليلًا في مشهد يُذكره بأمه من جديد، كانت تعرف المرء من وقع خطواته، وما إن يصل أبوه إلى عتبة المنزل حتى تخبره أن يفتح له، رغم أنه لم يطرق الباب بعدُ.. وحين يسألها كيف عرفتِ يا أمي؟ تحيبه بأن لكل إنسان بصمة على الأرض التي تحمله، هناك من يسير متحفظًا في خوف من غدرٍ مفاجئ، وهنالك من يسير في أملٍ أن ينال مراده، وهنالك من يسير مختالًا ظنًا منه أن الجميع يراقبه، والأهم من هذا كله أن خطوات الأحبة يحفظها القلب ولا تُنسى... شرد قاسم في أمه الحبيبة قبل يتحول صوت الخطوات إلى صوت طرقات على الباب الخشبي فتهتز الحواف النحاسية منه حتى يبدو أن الصدأ المتراكم فيها على وشك السقوط.. حينها تحرك قاسم تجاه الباب متسائلًا في حيرة عن الغريب الذي أراد أن يستقبله في يومه الأول بعد غيبته الطويلة.. إذ بدا وكأنه ينتظر مجيئه طول هذه الفترة.

مد يده ليفتح حتى تبين له وجه السائل.

كان رجلًا في الستين من عمره على الأقل، له شعر كثيف يظهر من أسفل العمامة البيضاء التي تلتف حول رأسه في جلالٍ، ملابسه تختلف تمامًا عن سكان المدينة.. من الطبقات كافة، كان الزي هنا إما جلبابًا للعمال والفلاحين، أو قميصًا وبنطالًا أسود يعتليهما الطربوش الأحمر للشباب في مثل عمره.. لكن الرداء الأزرق الذي يرتديه هذا الرجل جعل قاسم يحتار في أمره وتختلط عليه الأفكار كثيرًا.. سأله بفضول شديد بعد فضول: من أنت؟

تحركت شفتا الرجل في وقار بالغ وألقى عليه تحية سريعة: - يسعد صباحك قاسم أفندي..

- أهلًا.. من أنت؟

بجفاء قالها قاسم طغى على فضوله هذه المرة.. رد الرجل بثبات:

- لقد انتظرتك طويلًا.

وكان الرجل ينظر في ثقة تزيد من فضول قاسم الذي سأل وقد توتر أكثر وأكثر:

- انتظرتني طويلًا! هل أعرفك؟

- لا يا سيدي.. لكني سأنال الشرف قريبًا إن شاء الله.. لقد جئتك مبعوثًا من طرف مراد آزاد باشا.. القاطن في قصره المقابل لكم.. من المؤكد أنك تعرفه.

- أعرفه! ومن لا يعرف مراد باشا؟

قالها قاسم في دهشة بادية على وجهه، ورغم محاولته في إخفائها، إلا أنه لم ينجح.. قرر الاستسلام لها وقد تداعت له ذكريات وحكايات القصر التي لا تنتهي.. واليوم الذي ضل طريقه حين كان صغيرًا ووجد نفسه أمام القصر فوقف فارغًا فاه أمام البوابة لنصف الساعة، حتى جاءه أبوه وأمسكه من ذراعه في ذعر شديد أعاده إلى العالم الحقيقي، من يومها وهو يحلم ببهاء القصر واليوم الذي سيتمكن فيه من رؤيته.

لكنه لم يكن على علم بموعده.. حينما عاد من شروده سأل ضيفه الذي احترم شروده وكان صامتًا في أدب:

- ولكن! في أي شيء قد يريدني الباشا؟

نظر إليه الرجل بابتسامة واسعة:

- ستعلم كل شيء.. لا تتأخر.. من فضلك لا تتأخر.

وبينما يهم بالمغادرة أمسك به قاسم في حركة لا إرادية وهو يقول: هل آتي في أي وقت يا سيد؟... لكن لتقل.. ما اسمك؟

- عيسى.. اسمي عيسى.. وبالطبع تعالَ في أي وقت.. المهم أن تأتي.

***

طرقات القصر واسعة، تختلف تمامًا عن أي مكان رآه من قبل، تظن في البداية أنك لا زلت في الخارج من اتساع المساحات والزهور الكثيرة التي تقف في كرامة بكل أرجاء القصر، ألوانه رمادية لكنها تعطي مفهومًا آخر عن اللون الرمادي وكأنها تحاول تغيير الانطباع الذي يعرفه الناس عنه، إذ كان ينبض بالحياة من الداخل

والخارج، ويتخلله هواء الشرفات البارد الذي يصل إليك في كل مكان.. أما عن كل جدار فدومًا ما كانت تؤنسه لوحة تبدو غاية في الفخامة، وغاية في الأهمية لعين فنان مثل قاسم، الذي انبهر انبهارًا شديدًا لما رآه وشرد في أحلامه يتخيل لو كان هو صاحب هذا القصر الذي يليق بروحه كثيرًا، حتى شعر أنه لم يتنفس في تلك المدينة سوى اليوم، شعر أن الأكسجين داخله يختلف عن الأكسجين الذي يستهلكه الناس في الخارج. يومها فقط أدرك الجمال الذي يتشدق به الناس في المنازل المجاورة.

يذكر أنه ذات مرة أخبره الشيخ الذي يتولى تحفيظه القرآن كرمًا لأبيه العجوز ولروح أمه الصالحة.. عن جمال هذا القصر وأهميته وكيف أن المرة الوحيدة التي دخله فيها كانت من أهم المرات في حياته قائلًا: «مثل جنة على الأرض يا قاسم، مختلف تمامًا وكأنني قطعت تذكرة للخروج من مصر كلها»!

فجأة قطع شرود قاسم صوت خطوات راسخة لرِجلٍ تسير الهيبة أمامه، كأنها رجل منفصل بذاته ومرافق له، الأمر الذي جعل قاسم يتلفت باستدارة كاملة تأهبًا للتعرف على صاحب القصر بلا أدنى شك.. فلا يوجد من يرتدى تلك الملابس المرصعة بالفضة على حواف الأكمام والذهب على أطراف ياقتها إلا ويكون صاحب قصر مثل هذا.. جاءه صوت مراد باشا قائلًا:

- اجلس يا سيد قاسم ولا تندهش.. ستعتاد كل ما تراه قريبًا.

***

(٢)

- تلك اللوحة التي كنت تنظر إليها هي من صنيع زوجتي الحبيبة، إنني أفتقدها كثيرًا ولا زلت أحتفظ بكل ريشة كانت ترسم بها، أعتبر تلك الريشات بمثابة أولادي الذين تبقوا معي كي أتحمل أثر فراقها.

خرجت تلك الكلمات من فم مراد باشا في هدوءٍ شديد بعدما جلس ودعا ضيفه للانضمام إليه في ألفة وسلاسة لم يستطع قاسم إيجاد مبرر لهما في البداية، كان الباشا يتعامل بألفة شديدة، وكأنها اعتادا اللقاء وافترقا منذ ليلة ويوم، ظل شعوره بالدهشة رفيقًا له لا يتركه للحظة، كما أنه غرق في ريكته، وأخذ قلبه يقفز في مكانه توترًا وفضولًا، تلك هي مرته الأولى في زيارة مكان يختلف تمام الاختلاف عن طابع الحياة التي يعيشها.. لكن فشله في محاولة إخفاء ذلك كان واضحًا ولم يكن منه سوى أن أضاف القليل مما يجول في خاطره متمتمًا:

- رحمها الله يا سيدي، أعرف تمامًا ما يعنيه الفراق.

فاجأه سؤال مراد في حينها وكأنه ينتظر السؤال:

- لماذا؟ هل سبق لك أن أحببت أحدهم إلى هذه الدرجة؟

- أمي.. فقد أحببت أمي ويؤلمني رحيلها كثيرًا.. فرغم أنني لم أستطع تجربة شعور الحب الذي تقصده بكل تأكيد، لكني شعرت بآلام الفراق حين رحلت أمي عن عالمي البائس لتجعله أكثر بؤسًا..

- اعذرني أنا لا أقصد التقليل من شعورك النبيل تجاه والدتك.. لكن اسمح لي

Page (٢) ١٧٣ / ٢٠

أن أخبرك كم أنك محظوظ كونك لم تجرب شعور الحب الذي يتبعه الفراق من قبل، إنه أشد الآلام وطأة. كأن قلبك زجاجة مملوءة بالماء الطيب، وروحك هي الزهرة، التي تحيا على كل قطرة، حتى يقرر أحدهم أن يحتسيه على مهل، تاركًا روحك تجف كل يوم، حتى تذبل وربما تسقط أوراقها سقوطًا مروعًا، وتصبح جسدًا خاليًا من كل شيء..

بدت أمارات التعجب تزداد على وجه قاسم، الشاب الذي لطالما لم يسبق له أن شعر بما يمكن أن يسميه الحب، فما يجذبه ناحية الفتاة الوحيدة التي يعرفها هو اللين والرحمة التي يستشعرهما في حديثه إليها، أما الحب فقد عاش حياته بشكل طبيعي للغاية غير متطلب على الإطلاق، واضعًا آماله على شريكة حياة قد تعوضه في المستقبل عن طفولته الجافة ومراهقته التي ضاعت في أحضان السفر والدراسة، هكذا كان وهكذا سيكون.. رجل وحيد لم يعرف لصداقات الرجال الطبيعية طريقًا من قبل، ولم يدم له رفيق ليومين أو أكثر.. فهو لم يعرف سوى أميرة، رفيقة باب الجيران، لكن الزمن لم يسمح لهما بمنحه مفهومًا كاملًا عن تلك الصداقة ودائمًا ما كان يقاطعهما عن عمد، أما عن الحب فهو لم يرغب يومًا في المحاولة، قانعًا أن الحب لا يأتي بالبحث عنه، بل سيأتي طالما أنك مستعد له.. وقد كانت أميرة- رغم قُربها منه- كثيرة الانشغال، ولا تهتم سوى برعاية تلاميذها الصغار في منزل والدها الذي كان أشبه بمدرسة مرموقة منذ أن أنهت دراستها وصارت أول فتاة من فتيات أسيوط تتبرع في فعل أمر كهذا، حاربت وتمردت كثيرًا من أجل بلوغ حلمها، حتى باتت أمل البلد كلها في تعليم أولادهم، لعلهم يستطيعون السفر إلى الخارج وكسب الرزق الوفير دون أن تنتهي مصائرهم كمصائر آبائهم إما خلف جدران المصانع أو في حرث الأراضي للغير، قد كانت تنتهي من عملها صباحًا ليبدأ سيل التعليم المجاني في منزلها ليلًا.. لا تكل

ولا تمل، محملة بطموح السفر وتحقيق المزيد من الأحلام، وربما كان هذا أحد أسباب خوف قاسم من الاقتراب أكثر.

لكنه الآن قد تفاجأ بمعلومة أخرى اهتز لها قلبه المرتاب دائمًا، لم يكن يعلم أنه عندما يأتي الحب وتصبح متأكدًا منه سيتطلب منك الأمر الحفاظ عليه؛ لأنه سيكون مهددًا كل هذا التهديد من الفراق والألم وفقدان الروح كما قال مضيفه!..

مضيفه؟ تردد صدى تلك الكلمة في عقل قاسم حيث كانت التساؤلات تطير في عقله، وأهمها أنه لا يعرف سبب وجوده هنا، فلا يمكن أن يكون هنا للاستماع إلى قصة فراق الباشا وزوجته، كما أن الموت هو ما فرقهما، ويبدو أنهما كانا يعيشان في إخلاص وسعادة وأمل.. وراح يتساءل من جديد:

- لماذا أجلس هنا وأنا لا أبدو كمن ينتمي أبدًا لهذا المكان؟!

ستعرف كل شيء في وقته.. لا تقلق.

جاء رد السيد مراد مقيدًا لخيالات قاسم فأنصت له بهدوء.. وأكمل مراد:

- ربما أنك تعرفني من الصيت الواسع لهذا القصر في المدينة، لكني أريد أن أعرفك بنفسي الحقيقية.. فأنا لم أولد مراد باشا صاحب القصر، بل إنني لم أمتلك قصرًا من قبل، وإنما كنت أعمل كمحامٍ بسيط يكسب من نجاحاته الصغيرة وأرتضي الأمر كثيرًا.. لكني صرت ميسور الحال، ونظرًا لكوني أنحدر من عائلة ثرية فقد ساعدني ذلك كثيرًا في أن أصبح أفضل مما كنت عليه.. لكني لم أكن ثريًا بما يكفي بالنسبة لعائلة فيروزا.. هذا الرجل الذي أمامك قد عانى كثيرًا من ويلات الحب، وذاق مرارة المحاولات التي تمر دون جدوى، سأحكي

لك باستفاضة، اسمعني ولا تقاطعني لأنك ستمتلك فرصة المقاطعة كثيرًا في المستقبل.. صدقني..

لم يتدارك قاسم ما يحدث بالطبع، ولما قد يرغب الباشا بهيبته ومكانته أن يحكي له عن تفاصيل خاصة إلى هذه الدرجة؟! لكن فضوله كان جالسًا إلى جواره يحثه على الانتظار لسماع المزيد، إنه يرى نفسه ككاتب وكل ما يقال حوله يمنحه قصة وتجربة يتمنى لو يمكنه النهوض سريعًا كي يدونها على الورق.. خاصة عندما تكون في مكان مثل هذا.. أخذ يفكر في الأمر حتى قطع شروده حديث الباشا مرة أخرى، بعدما اعتدل في جلسته وطلب من السيد عيسى كبير الخدم أن يحضر له كوبًا من الماء البارد، وأن يحضر لقاسم ما يرغب به، والذي كان مشروب الشاي بالنعناع من دون شك.

أكمل الباشا حديثه قائلًا:

- أحببت يا قاسم.. أحببت وانقلبت حياتي رأسًا على عقب.. لم أكن قادرًا على قراءة الساعة في غيابها خشية أن أعي الوقت الحقيقي الذي قضيته، وأنا أفكر في حل لرؤيتها.. كانت فيروزًا من أجمل الفتيات اللاتي لا يحتجن لتدخلات خارجية كي تبدو جميلة، كانت لوحة ترسم لوحة.. كان عائقها الوحيد هو عائلتها الذين كانوا من أثرياء القوم، ويبدو أن رفضهم لشخص مثلي كان أمرًا متوقعًا.

- هل رفضوا الزواج؟

- نعم.. ورفضوا حتى إمكانية أن نلتقي مرة أخرى، ما إن علم والدها بالأمر حتى أجبرني على الرحيل من البلدة، وأجبرها على المكوث بالمنزل لفترة كادت تشق قلبي إلى نصفين!

سرقت الحكاية اهتمام قاسم الذي عقد يديه على صدره واعتدل في جلسته إشارة إلى رغبته في معرفة ما حدث، على الرغم من عدم تطرق الباشا إلى السبب الحقيقي الذي جاء به إلى القصر حتى الآن.. وبادر قاسم بالسؤال:

- ألم تشعر بالرغبة في تركها بعد رفضك؟

- ولا مرة.. كيف أترك وأكون أنا المتروك؟ سأشعر بالشتات في الحالتين لأن نتيجتهما واحدة.. لولا دخول فيروزا إلى حياتي لم أكن لأعيش كل هذه المدة حتى اللحظة التي أحادثك فيها.. لم أتمكن من تركها بالطبع.. واصلت المحاولة وتحملت ما لا يتحمله بشر من معاناة، لم أستسلم.. ظللت عالقًا في عشقي حتى اليوم الذي تُوفي فيه والدها.. ورغم أنني لم أسعد لهذا إلا أن قدرتها على زيارتي كانت بالعالم وما فيه.. لا أظن أنني شعرت بسعادة مماثلة للوقت الذي رأيتها فيه.. من يومها لم أتركها لحظة وحيدة ولا أبالغ حينما أقول لك ذلك..

- تنهد قاسم في شرود وكأنه يتذكر شيئًا وقبل أن يبادره مراد بالسؤال أجابه:

- أعتقد أنني أفهم الآن.. لقد كان يخبرني الشيخ أنك لا تخرج للشارع أبدًا مهما كثرت الزيارات، كما أنني أذكر أيضًا أن زوجته قالت إن نساء المدينة لم يروا زوجتك ولا مرة إلا من خلال إحدى شرفات القصر أو الحديقة الخلفية له!

- من الشيخ الذي تقصده؟

- صديق قديم لوالدي.. إنه الرجل الذي كان يعينني على حفظ القرآن وتعلم القراءة والكتابة.. اسمه «الشيخ أمين» لكني لا أذكر يومًا أنني ناديته بهذا الاسم.. لا أذكر أنني ناديته باسم سوى الشيخ.. لابد أنك تعرفه، لقد أخبرني أنه زار القصر

مرة حينما كنت تستقبل وفدًا من أقباط وشيوخ مصر في جلسة ثقافية لتبادل بعض الآراء.

انطفأت حماسة قاسم حينما أخبره الباشا أنه لا يتذكر الشيخ لكنه لم يعبأ كثيرًا لهذا الجزء، بدا وكأنه لم يسمع قاسم من الأساس.. كل ما أراده هو أن يكمل بقية الحكاية

تابع مراد:

- على أية حال.. لم ننتقل أبدًا للعيش في مكان آخر غير هذا القصر.. لقد شيدته من أجلها، وكان لابد أن تظل هي ملاكه الحارس طيلة هذه السنوات.. لكني لم أستطع أن أتركها أيضًا لسبب ستعمله بعد فترة، لكن أخبرني الآن.. من أين لك بكل هذه الموهبة الأدبية؟

حاول قاسم أن يستدرك معنى السؤال أو سببه، بل وكيف عرف السيد مراد بأمر موهبته.. لم يذع صِيته سوى في تلك المدينة، رغم أنها تمتاز بالهدوء والسكينة الكافيين كي يصبح الناس كلهم أصدقاء ومعارف، فقد حاول كثيرًا الترويج لروايته القصيرة الأولى والتي نسخ منها عدة نسخ وراح يوزعها بشكل عشوائي على أهل المدينة، إلا أنه لم يكن في انتظار نتيجة عظيمة إزاء ما يفعله، وهو ما حدث بالفعل.. الأمر الذي دفعه للسؤال:

- معذرة يا سيدي.. كيف علمت أنني أحب الأدب من الأساس؟

- ما هذه.. إذا؟

رفع مراد يده ببضعة أوراق، تعرف عليها قاسم فور رؤيتها، رغم صغر حجمها..

كانت تلك هي نفس أوراق الرواية التي عكف على كتابتها بعد عودته من القاهرة، والتي كانت تمثل تجربته الأولى التي لم تنكشف على أحد كما ظن؛ إذ إنه لم يتلقَّ أي ردة فعل من أي شخص قد أخذها رغمًا عنه طلبًا من قاسم.. لكنه لم يذكر اقترابه من القصر بتلك الأوراق، فأعاد السؤال بصيغةٍ مختلفة:

- لكني لم أرسلها إلى هنا مثلما فعلت مع بقية سكان المدينة يا سيدي!

- نعم نعم أعرف هذا.. لكنها وقعت في يد عيسى، لم يُولِها اهتمامًا كبيرًا، لكنه تركها على إحدى الطاولات فوقعت في يدي وإلا لم أكن لأعثر عليك يا صديقي..

- رغم غرابة كلمة صديقي فقد فرح بها قاسم وبما وصلت إليه جلستهما حتى الآن، إذ يبدو من الحديث أن الأمر كله خير لا ريبة فيه كما ظن قاسم، تابع الباشا كلامه:

- ستصبح صديقي.. لقد قرأت كلماتك يا قاسم ولمست قلبي العليل منذ مدة طويلة، واستمع لهذا جيدًا من رجل لم يستطع قراءة أوراق عمله حتى، إنك حكّاءٌ مبدع.. وكلماتك تبدو كمحاولة عزف على أكثر من آلة في تناغم موسيقي رائع.

لم يصدق قاسم أذنيه، حتى بدا يحلم بالمزيد.. دون أن يعلم أن المزيد يتضمن صفقة أكبر وأهم مما يدور في مخيلته.. إذ أجبره الباشا على التمسك بالصمت قليلًا حتى قال له:

- هل يضيرك أن تمكث في قصري هذا لعام أو أكثر؟

- عام؟ وأكثر؟ لا أفهم شيئًا يا سيدي.. وكيف يمكنني أن أفعل ذلك؟ ولِمَ؟ هل

تمتلك عملًا مناسبًا لي أو ما شابه؟! لقد قلت لتوك إنني كاتب موهوب.. ولا أظن أن هنالك فرصة عمل ممكنة لكاتب في رحاب هذا القصر..

- نظر الباشا في عينه طويلًا وقال بصوت راسخ:

- بل هي أهم فرصة في حياتك..

أثارت كلمات الباشا الشك والفرح في قلب قاسم في آنٍ واحد، لكنه لم يستطع أن يوقفه هذه المرة، وكيف يوقفه وطريقته في التلويح بالأوراق كانت كافية لإقناعه بأي شيء؟! كان ينظر إليها ويرى مستقبلًا كاملًا وحياة جديدة ظلت على الأوراق طوال عمره، ظل قلمه هو صديقه المخلص الوحيد.. هكذا أراد وهكذا كان يسخر منه الجميع ممن يسكنون إلى جواره في الحرم الجامعي، لكنه لم يلتفت يومًا لتنمر الآخرين، كان يثق تمام الثقة أنه سيأتي اليوم الذي يفتخر فيه الناس بالسكن إلى جانبه، حتى ولو ظل في منزله المتواضع، لم يفوّت يومًا إلا وهو يكتب ما يأمله، ويخط ما سيحلم به وكأنه يعيش رغم بؤسه على عهد كامل مع السعادة لكنها تتثاقل في خطواتها إليه.

كاد الباشا أن ينتهي أخيرًا من بعثرة بعض المقتنيات التي تقبع في صندوق خشبي إلى جواره حتى نجح في الوصول إلى ما يبحث عنه. تأهب قاسم وهو يعرف أن ما سيطلعه عليه له عظيم الأثر بما جرى بينهما في هذه الجلسة.

أخرج الباشا يده من الصندوق.. وإذا به يمسك صورة لزوجته الراحلة.. كما ظن قاسم، يمسك بها بيده اليمنى، وفي اليد الأخرى قلمٌ خشبي له مظهر نادر لم يره قاسم من قبل طوال عمره في أي مكان.. رفع الباشا القلم والصورة جنبًا إلى جنب، ثم نهض ليقترب من المقعد الذي يجلس عليه ضيفه وقال له في هدوء:

- أريدك أن تكتب كل ما شيده الحب في هذا القصر.. كل شيء يا قاسم.

***

(٣)

وقف قاسم يتأمل منزله في محاولة إدراك تلك الصدفة الغريبة التي أحضرها القدر إلى بابه، والتي لم يكن ليتخيل أبدًا أن تسير على هذا النحو.. كان رجلًا بسيطًا يكتب عن أصدقائه الذين لا وجود لهم وأهله الذين يرتدون نفس الملابس لعدة ليالٍ متواصلة، وحبيبته التي لا يعرف شكلها ولا يظن في أنه سيعرف عما قريب..

هكذا كان خياله يعي حجمه ولا يخرج من تلك الدائرة حتى اليوم.. فقد كان حديث الباشا يحمل الكثير من الوعود والآمال حتى ولو لم يكن مصرحًا بها.

إن قصة حب لرجل يحمل هذا الصيت، وداخل أروقة قصر بهذا الجمال هي رواية عمره، هي التي ستجعل اسمه مخلدًا في أواسط الأدباء والمثقفين، لكن ماذا لو لم يقدر على ذلك وكان الحمل أكبر منه، تلك تساؤلات قالها للباشا بشكل غاية في الوضوح، لكن الأخير كان يطمئنه ويعده بأن الأمر أبسط مما يتخيل، وأنه لا يحتاج سوى تصديق ما سيقال له. وتصديق قدرته على إنجاح الأمر.. وكان الباشا يفعل ذلك وهو يشير لكل رقعة في القصر ويقول:

- حاول أن تقع في حب المكان هنا يا قاسم.. ستعرف بعدها أهمية الأمر بالنسبة لي.. لقد أرسلتك إليّ السماء كي تفعل الشيء الوحيد الذي أردته منذ وفاة زوجتي ولم أستطع، واسمح لي أن أتمسك بك وبموهبتك حتى آخر لحظة.

كان طلب الباشا بمثابة فرصة العمر التي لا تُعَوَّض، أخبره في ثقة تامة:

- ستكتب عني وعن حبيبتي يا قاسم وستعرف كل شيء، ستكون الأمين الذي

لن يفشي أي سر من الأسرار التي سيستمع إليها أبدًا.. لم يعِ قاسم في البداية ماهية الأسرار التي يتحدث عنها لكنه كان يمتلك ما يكفي من الخجل كي يمنعه من السؤال، وقرر أنه سينتظر حتى يعود في المرة التالية.

أمهله الباشا يومين لا أكثر كي يجلب حاجياته ويخبره برغبته التامة الخالصة في المكوث معه لمدة عام واحد ينصت إليه، يكتب ما يقوله في صيغة القصة الخالدة التي يريد لها أن تكون.. ورغم أنه سمح له باتخاذ قراره إلا أن قاسم لم يكن من النوع الذي يحتاج وقتًا للتفكير لأن يومًا، يومين، أسبوعين، أو حتى عامين سيحملون نفس قدر التوتر والرهبة داخله، ولا يمكنه اتخاذ قرار إلا لو فُرض عليه.. لكنه كان واضحًا نقيًا؛ ولهذا وافق على الانتظار والعودة إلى المنزل والتفكير.

***

ظل واقفًا أمام منزله يستعيد بعض الذكريات التي باغتته فور أن وضع يده على الباب الخشبي مزيلًا آثار الغبار التي لم يلتفت إليها من قبل.. تراوده ذكرى القصة القصيرة الأولى التي كتبها في حياته والتي كانت تحكي عن أول مرة شاهد فيها والده يذبح إحدى الدجاجات.. كيف لطفل صغير مثله أن يفزع ويخرج ناحية الباب الخلفي الذي يحكم إغلاق القفص البلاستيكي في باحة المنزل الخلفية الصغيرة والذي يحوي عددًا من الدجاجات والأرانب ابتاعهم والده منذ فترة، تطعمهم والدته لضمان توفر الوجبات الثلاثة لكل من يمكث في المنزل، فعلى الرغم من أنه كان وحيدهما إلا أن المنزل لم يخلُ أبدًا من الجيران ومن أصدقاء الجيران والأولاد أبناء الشيخ وأبناء الحاجة فاطمة التي كانت تعامله كابنٍ لها وأكثر بعدما صعدت روح والدته إلى خالقها..

وبالطبع لم يكن البيت يخلو أبدًا من أميرة.. ابنتها التي رزقت بها وهي امرأة أربعينية لم تكن في حالة تسمح لإنجاب مزيد من الأولاد، لكن أميرة كانت كمن شق طريقه إلى الحياة بإرادته، وهكذا كان يسخر منها الجميع عدا قاسم الذي لم يكن يفرق بين وجودها ووجود أي من الأطفال الآخرين، لأنه في جميع الأحوال كان يجلس وحده أمام النافذة.. يحاول قراءة ما تلتقطه عيناه من اللافتات المحيطة بهم والتي حفظها عن ظهر قلب، ولطالما دعته أميرة للتخلي عن الفكرة والانضمام إليهم في ساحة اللعب إلا أنه كان يرفض رفضًا شديدًا، رغم أنه كان يمتلك جانبًا من الرغبة في الانضمام إليها وحدها، لكن تلك الرغبة كانت سرعان ما تتلاشى خوفًا من الرفض..

يتذكر كل شيء ويتبادر إلى ذهنه كيف أن أميرة لم تتغير أبدًا، إنها لا زالت أكثر الوجوه إثارة للفضول من بين كل من يعرفهم، لم تتغير وإنما أصبحت أكثر إصرارًا على ما تريد، منذ عرفها وهي تتحدث عن التعلم وعن تحسين حال البلد. حتى عندما أقنعت والديها بالدراسة ونجحت في العمل بعد ذلك لم ينقطع طموحها أبدًا، يستمع إلى طريقة نطقها للغة الفرنسية في أذنيه، وكيف كانت تواصل تعلمها في نهم فتتولد لديه رغبة في الذهاب إليها وأخذ رأيها فيما يحدث.. لكنه سرعان ما يكبح جماح تلك الرغبة ويتذكر ذلك الوعد بالسرية الذي سيأخذه على نفسه إن بدأت تلك الحكاية..

وقف شاردًا لدقائق مرت عليه ساعات وعقله لا يتوقف عن التفكير، غارق في الحيرة التي اعتاد عليها منذ كان صغيرًا.. يتذكر اليوم الذي وقف فيه في نفس المكان من قبل، الباب الذي يعلو قامته بمترين زائدين من أمامه والمحال المغلقة في هذا التوقيت من اليوم، يغطيها الغبار فتبدو غير واضحة المعالم، على جانب

الطريق يتراص الأطفال بجلاليب متسخة إزاء اللعب الطويل، أصواتهم تخترق عقله في محاولة لإثنائه عما يفكر، لكنه كان عازمًا على الرحيل.. منذ زمن طويل وهو يشعر أنه راحل لا محالة.. كانت تنقصه الواجهة، والهدف. لا يعرف طريقًا غير الطريق الذي اختاره، كل ما في الأمر أن الحنين بدأ مبكرًا عما توقع.. شعور صعب مهيب له القدرة على اعتصار القلب حتى قبل أن يبدأ الفراق. أخذ يتلفت حوله في دهشة من الزمان الذي يعيد نفسه في تلك اللحظة لعل عينيه تقع على شيء يمنحه الإشارة التي يبحث عنها، لكن واجهات المحال لا تعيره انتباهًا، والمارة القلائل الذين يلقون التحية لا يبدون درجة الاهتمام التي قد تجعله يتردد في القرار.. يتصاعد داخل نفسه السؤال الذي يهابه تمامًا.. لماذا يبقى؟ لمن يبقى؟

يحاول أن يتسامر مع أيٍّ من المارة، رغم أنه يعرفهم جيدًا ويعرفونه، يسكن في مكان مناسب يجعله على استعداد لبدء أي حديث طويل مع أيٍّ منهم إذا قرر أحدهم ذلك، كان بيته هو الأول في زقاق ضيق فقير متفرع من الشارع الرئيسي.. للبيت نافذة بنية تطل على الشارع من بين أربعة أعمدة رفيعة من الخشب، ولهذا فإن المكان الذي يقف فيه كان يسمح له دومًا باصطياد الأصدقاء القادمين إن رغب في ذلك.. لكن الحقيقة أنه لم يرغب يومًا في ذلك.. والشعور الأكثر قسوة أنه ربما لن يرغب أبدًا.

انفتحت النافذة التي تزين المنزل المجاور مباشرة لمنزله في هدوء، ثم أغلقت بهدوء لتكتفي بشعاع طفيف من الضوء الذي يُمكّن أميرة من رؤيته، في مشهد متكرر تتذكره جيدًا قبل اليوم الذي رحل فيه عن المدينة من قبل، ظلت تراقبه في تردد كما تفعل دائمًا، تفند خطواته الثابتة وتحللها بينها وبين نفسها.. تحاول

أن تستنتج إجابات عن ما يمر به في هذه اللحظة تحديدًا.. كانت خطواته تتجه ناحية الباب.. لكنها سرعان ما تتبدل وتعيده إلى الخلف وهو يحك رأسه.. كأن الأفكار تقف عليه لتعيقه عن الدخول، ظلت على هذا الحال حوالي خمس دقائق قبل أن تقرر هي النزول إليه، واتخاذ الخطوة الأولى ناحيته كما اعتادت.. لعل في الأمر ما يستحق الحديث بشأنه..

ما إن أغلقت النافذة تمامًا حتى سحبت ملاءتها السوداء من فوق الأريكة المجاورة للنافذة وانطلقت من باب منزلها الذي صار يُفتح بسهولة بعدما كبرت وتوطدت علاقتها بالجميع مما سهل عليها أزمة الخروج إلى الشارع في كل مرة.

كان قاسم قد أخرج مفتاحه النحاسي الضخم الذي لا يشبه أيًا من مفاتيح بقية المنازل، والذي عفا عليه الزمن ولم تعفُ عليه عائلة قاسم، وكان يهرب في نفس اللحظة من استعداده لمواجهة أميرة بالأخبار الجديدة.. ترى ماذا سيقول لها؟ يعرف جيدًا أنها طرف بشكل أو بآخر في أي شيء يحدث له في هذه الدنيا.. وما إن تأهب لفتح الباب حتى عجز عن رؤية المفتاح جيدًا في يده إزاء الدخان الأبيض الذي جعل كل شيء خفيًا من حوله، تسلل الدخان إلى كل ثغرة في المكان حتى عينيه اللتين أخذ يفركهما في هدوء، ليتبين له وجه «إسماعيل» الرجل الأربعيني الذي يرتدي الجلباب الرمادي دومًا، كان يطوف حول الدكاكين المجاورة بينما يحمل مبخرة صغيرة من النحاس، بحثًا عن صاحب دكان يشاركه بداية يومه بالطريقة التي يعرفها، وما إن يستجيب أحد الرجال الذي يبادره التحية حتى تنتشر الرائحة وتتوغل أكثر في الأنحاء إلى أن يكتفي «إسماعيل» ويظن أن عمله قد انتهى أخيرًا. لكنه غادر دون أن تغادر الرائحة التي ظلت تتشكل في دوائر الدخان الملتفة حول رأس قاسم وأنفه وكل جوارحه، وبينما

Page (٣١) ١٧٢ / ٣٣

يحاول أن يشيحها بعيدًا حتى يتمكن من رؤية الباب مجددًا اخترقتها رائحة مختلفة تمامًا، رائحة لا تليق بما يدور من حولها، مما جعله يزيد من محاولة بعثرة الدخان لعله يرى مصدرها.. فقد بدت له مألوفة، ربما لو سمع خطوات صاحبها سيعرفه، إذ صار يرى نفسه بارعًا في تمييز خطوات الناس من بعضهما، فما إن يستمع إلى وقع أقدام أحدهم حتى يخبر نفسه أن القادم فلان ويقيم حفلًا صغيرًا في داخله حينما يكون على حق ثم يتمنى لو أن أمه بالجوار كي يخبرها.. ابتعد عن الباب قليلًا وما إن التفت حتى وجد أميرة تقف أمامه وتنظر إليه.. كأنها كانت تنتظر أن يعرفها من خطواتها كما اعتادت، لكنه لم يصبر حتى يفعل ذلك وقرر رؤيتها بكامل هيئتها.

سألته في هدوءٍ على عكس ما يدور داخله:

- أين كنت؟

ظل ناظرًا إليها وكأنه يستوعب وجودها بين يديه فتابعت:

- سألتني أمي عليك وأرادتني أن أحضر لك الطعام.

تنهد قليلًا وهو يحاول استدراك فكرة أنه كان يتذكر تفاصيلها للتو، وها هي تحضر في الوقت ذاته كعادتها، وكأن هنالك من يستدعيها دون الرجوع إليه أولًا..

- كنت بالجوار أبحث عن أوراق تصلح للكتابة عليها، تعرفين أنني انتقائي للغاية حين يتعلق الأمر بالكتابة.

- أعرف..

قالتها بابتسامة تجعل للحديث بقية لكنها اكتفت بكلمة واحدة كما تفعل دائمًا.

- وأنت ماذا تفعلين في تلك الساعة؟ لا زال الوقت باكرًا على العمل.

- نعم باكر جدًا.. لكني أحب الاستيقاظ للاستعداد أولًا، لست وحدك من يعد نفسه للكتابة جيدًا.

تخللت ابتسامته رغبة في البوح عما حدث معه، لكنه شعر بأن أي حديث سيقال لن ينتهي هنا، مما جعله يختار الصمت لعل الأيام تجيبها عن كل شيء.. وما إن اتخذ القرار داخله حتى اقترب منها وهو يقول:

- أتعرفين أنك الوحيدة من بين كل الناس من تبدي اهتمامًا كبيرًا باستعدادي للكتابة؟!

- والوحيدة أيضًا التي تدافع عنك أيضًا ممن يستنكرون تلك اللحظات؟! ألا تذكر؟! أم أن غيابك الطويل أنساك؟!

اتسعت ابتسامته وهو يتذكر كل مرة نهرت فيها أميرة بقية الأولاد كي يتركوه وشأنه وهو جالس ليقرأ أو ليكتب.. رد سريعًا وكأنه ينفي اتهامًا ظالمًا:

- بلى أذكر، وأذكر أيضًا كيف كنت تقفين أمامي وتفتحين ذراعيك على مصراعيهما وكأنك حارسي الشخصي الذي يحميني من عيون الآخرين.. لن أنسى كل هذا يا أميرة حتى ولو حاولت.

شعرت أميرة بمسحة الحزن التي تعرفها جيدًا في عينيه، توترت روحها وأعادت عليه السؤال ولكن بطريقة أكثر وضوحًا:

- غيابك الطويل.. انتهى يا قاسم.. أليس كذلك؟

- يبدو أنه سيطول أكثر وأكثر يا أميرة..

هكذا أجابها وهو يخشى الاقتراب منها مثلما كان يخشاه في كل مرة يراها فيها.

لم يسعه أن ينظر لها وهي تتألق في عباءتها الزرقاء الناعمة التي تظهر أطرافها من تحت الملاءة السوداء الملتفة حول جسدها بأكمله، وتغطي كل شيء ما عدا جزءًا بسيطًا من قدميها، يهرب من عينيها التي تصيبه في مقتل من جرأتها ومن فضولها ورغبتها في تفحص كل ما يدور في عقله.. وكأنها قارئة أفكار.. تلك العيون السوداء التي لا تسمح للون آخر بالدخول إلى عالمها هي أكثر العيون هيبة، فلا يمكنه توقع ما تطل عليه ولا يمكنه أن يشكك في قوة بصرها، هكذا كانت أميرة، تنظر إليه فيشعر أنه تعرى أمامها حتى من دون أن تتحدث.. وكان رد قاسم مبهمًا رغم وضوحه.. إلا أن الأمر لم يمنعها من السؤال بخوف:

- كيف سيطول؟ ما الذي تقصده؟

- سأمضي في طريق آخر تمامًا، ويبدو أنني لن أتمكن حتى من إخبارك بالتفاصيل، يومين أو أكثر، وسأذهب وربما أعود بعد عام أو أقل من ذلك، حقًا لا أعرف.

أكملت حديثها بثقة مختلفة تمام الاختلاف عن فتيات تلك المدينة الهادئة:

- ولماذا لا يمكنك إخباري؟ هكذا أنت دائمًا، لا يمكنك إخباري بأي شيء، على الرغم من أنني أخبرك بكل شيء.. ولما أخبرك من الأساس فأنت ترى كل شيء وحدك، فأنا أسير وعلى رأسي ما أفكر به، ولا أدري حقًا ما يجبرك على كتمان كل

شيء يا قاسم ألا تشعر بالإنهاك؟ ألا تثيرك الرغبة في الحديث؟

اقترب منها هذه المرة، وقال:

- لا أريد التحدث عن أفكار لم تدخل طور التنفيذ بعد يا أميرة، يدعو الناس ذلك بأنه نوع من أنواع البوح لكني لا أبوح بما لست متأكدًا منه.. سأخبرك إن نجحت في مسعاي. والآن اتركيني لأدخل، أرسلي تحياتي إلى الحاجة فاطمة واعتذري لها عن عدم سؤالي في المرات السابقة، سيأتي اليوم الذي أبادر فيه بذلك، أنا أعتذر عن تقصيري..

تأهبت أميرة للذهاب بعدما رمقته بنظرة متفهمة لما يشعر، وابتلعت مرارة اللقاء المقبض.. ولم تستطع أن تلومه بين نفسها.. فلطالما أحست أنه يرغب في قول كل شيء إلا أن مجرد استعدادها لذلك أحيانًا ما يخيفه أو يحيده عن الحديث ربما.. على مدار واحد وعشرين عامًا من عمرها لم تتمكن يومًا من الخروج بإجابة مريحة من فم قاسم. والشيء الوحيد الذي يمنعها عن مقاطعته هو علمها بما يدور في داخله واحترامه لكونه إنسانًا واضحًا صريحًا حتى ولو كان ذلك الوضوح يسير عكس رغبتها.

أحكمت لف الملاءة حول جسدها النحيل الذي يشبه قوة إرادة تسير على قدمين رغم صغر سنها، وتوجهت إلى منزلها القريب. لتزيح قطعة الخشب التي كانت تحول دون انغلاق الباب ودخلت. أيقظ صوت خطواتها والدتها الحاجة فاطمة، والتي لم تنتظر مجيئها إلى الفراش وسألتها على الفور:

- سيسافر مجددًا.. أليس كذلك؟

- لا أعلم يا أمي، يبدو أنه في عجلة من أمره دائمًا، ادعي له.

- إنه هكذا دائمًا، ليهديه الله إلى طريقك يا ابنتي ويجعل منكما رزقًا عاجلًا لعجوز مثلي.

ردت أميرة سريعًا بلوم:

يا أمي..! أخبرتك من قبل أنني لا أريد لذلك أن يحدث، وليس معنى أنني أنصت إليك وأذهب للسؤال عن أحواله دائمًا أنني أريد ذلك، كل ما في الأمر أنه رفيق طفولتنا، طفولتنا جميعًا أنا وصفاء ابنة الحاجة أمينة وعبدالحليم ابن الشيخ، وكل الأولاد الآخرين الذين تتعمدين نسيانهم جميعًا ولا تتذكرين إلا قاسم.

بفراسة الأم، تدرك الحاجة فاطمة شعور فتاة في مثل عمر ابنتها لكنها تخجل من التصريح به خوفًا على كل ما تملك من مشاعر نبيلة أن تهدر في أرض جافة كتلك التي تحيط بها من كل مكان، صمتت ولم ترد لكن عقلها يقول الكثير.. خاصة بعدما اهتدت لكومة الأوراق التي تمسك بها أميرة في عناية بالغة حتى صارت تحفظهم عن ظهر قلب.. لكنها تفشل في كل مرة ترغب في الحديث إلى صاحبهم.. لم تسألها يومًا عما إذا كانت قد تمكنت من الحديث معه بشأنهم أم لا.. وكانت تنتظر اختلاف النتيجة في كل مرة لكن ذلك لم يحدث أبدًا.

***

دلف قاسم بعدما صارعته الأفكار وقادته إلى غرفة نومه وهو يتخيل الحياة التي يمكنه أن يعيشها داخل أروقة القصر، وكيف له أن يعتاد أمورًا لم يرها يومًا

إلا في المنام، فلم يكن القصر إلا حلمًا يتحدث عنه الأولاد في صغرهم، وينظر إليهم قاسم في إنصات شديد دون أن يعلق، لم يكن من النوع الراغب في التعلق بالأحلام، لكن الأمر يختلف هذه المرة، فالأحلام هي ما تسعى وراءه.

لم ينتظر حتى تمر المهلة التي منحه إياها الباشا، وما إن بزغ نور فجر اليوم التالي حتى انعكس ظل قاسم وهو يسير ذهابًا وإيابًا داخل غرفته المطلة على الشارع بهدوئه المعتاد الذي يبدأ منذ الساعة التاسعة مساء وكأن كل سكان المدينة يتفقون على موعد واحد للخلود إلى النوم.. وبدأ في تجهيز حاجياته استعدادًا للذهاب لاستغلال الفرصة التي لا تأتي في العمر إلا مرة.

لطالما كان قانعًا بأنه لا يملك ما يبكي عليه أو ما يخشى من خسارته خاصة بعد رحيل والده ولحاقه بوالدته التي كانت تعتبر أمله الوحيد الذي يدفعه للمواصلة، كان منزله بمثابة فندق يبيت فيه، أما روحه فلا تزال هائمة بالخارج.. هائمة ضائعة وسط الأحلام، رغم أنه لم يكن على خصومة مع الدنيا إلا أنه في نفس الوقت لم يرغب في شيء منها سوى أن يتركه الناس في صمته دون أن يتبادلوا الأسئلة التي تصل إلى مسمعه ويتعمد تجاهلها في كل مرة،،

يذكر جيدًا أيام دراسته، والتي كانت عبارة عن ممر شاق بالنسبة لرجل يفضل العزلة، ممر يجب أن يعبره رغم كل محاولات تعطيله عن ذلك، يذكر كيف كان الطلاب ينظرون إليه وإلى أوراقه التي تلازمه في كل مكان، حتى اليوم الذي وصفه أحدهم بالمختل، كانت زياراتهم فتيات الطبقة الأرستقراطية تتوالى على مكان دراسته لحضور جلسات المعلمين الأجانب الذي كانوا يدرسون التاريخ المصري والعكس، وفي حضور الكثير من الطلاب المستفيدين من ذلك كانت تلك الجلسات تحقق نجاحًا واسعًا، ويخرج الجميع منها وداخله قدر كبير من

الرغبة في أن يصبح مثلهم.. وفي يوم من الأيام.. حاولت إحدى الفتيات من الطبقة الأرستقراطية.. وما إن تقربت منه الفتاة، وهو شيء لا يقدم هذا النوع من الفتيات على فعله، فانصرف سريعًا يبحث عن موعد الجلسة القادمة لأحد المحاضرين المفضلين لديه، ما إن تحرك حينها ومر من أمام مجموعة من الشباب العالقين في المكان وكأنهم لا يملكون تعريف هوية سوى أنهم من أبناء طبقة ثرية ترغب في الحصول على كل شيء، المال والعلم معًا، حتى وصفه أحدهم بالمختل، لم يلقِ اهتمامًا كبيرًا لما حدث ولم يكبد نفسه عناء النظر خلفه لرؤية تعبير وجه الفتاة الضاحك المتعجب من رد فعل شاب في مثل عمره.

كان كثيرًا ما يسترق السمع إلى أحاديث والده ووالدته، بينما يرقد في الفراش على وشك الاستغراق في النوم، ووالدته تقول:

- أنا أخشى أن يظل قاسم متعلقًا بحباله البالية، أعني كونه مختلفًا لكن اختلافه لن يُقدَّر في زمننا هذا يا سليمان..

وكان يجيبها محاولًا طمأنتها بطريقته الزائفة المعتادة:

- أنا لا أعرف الخوف على رجل، ابنك رجل، الخوف على الرجال كمحاولة ري الشجرة بأكثر من حاجتها من المياه، يفسدها ذلك ويعيق نموها، اتركيه يتخبط في الحياة فيعرف أن حلمه لا يحمل له نهاية سعيدة فيعيد حساباته من جديد.. وما إن تستمع لكلمته القاسية وتحاول ابتلاعها حتى تعيدها غريزة الأمومة للمحاولة مرة أخرى وهي تقول:

- لكني أخشى أن يعيش وحيدًا.. أنت لا تعرف معنى الوحدة.. لن يتحملها شاب مثله يمتلك خيالًا كخياله، ولا يستطيع الحديث عنه إلا في أوراقه..

لكن كلماتها لا تقابل إلا بسخرية من الأب الذي يتهمها أنها أصبحت تتحدث مثل ابنها الذي لا نفع منه ولا ضير، مثل الماء الفاتر الذي لا يروي العطش لكنه يُحتسب عليك شربٌ.. ويتكرر الحديث يومًا بعد يوم منذ كان قاسم طفلًا صغيرًا لكن الأم وحدها تعرف ما ستئول إليه الأمور، وكأن لها جهاز الرادار الخاص الذي يراقب كل حركة وتطوره بطريقتها الخاصة حتى يمكنها توقع الحركة القادمة.. ولأسباب كتلك كان يريد قاسم أن تكون أمه معه في يوم كهذا، ليأخذ بمشورتها ويتحرك في الاتجاه الذي تراه صحيحًا.. لكن إرادة الله حالت دون ذلك.

ما إن أعلن النهار عن نفسه وعن بداية يوم جديد حتى ودع قاسم كل شبر في المنزل وانطلق كي يودعه من الخارج.. وقف ينظر إلى شرفته الحديدية التي يحميها إطار خشبي بلونه البني الذي يعطيك إيحاء أنه ربما احترق من قبل وأضرمت فيه النيران، لكنه لم يكن سوى مكان شديد القدم ليس إلا، ينظر إلى الدَّرج الصغير الذي يفضي إلى الطابق الأول.. لطالما جلس عليه قاسم وهو يحاول الكتابة ليلًا هربًا من أبيه الذي يعتمد هوايته المفضلة في الصياح كي يتجه إلى النوم بلا أي سبب مقنع، حتى دكان البقالة الذي يجاور المنزل والذي لطالما حاول إغراءه هو وبقية الأطفال كي يطالبوا بمزيد من المال من أمهاتهم ويتجهون لشراء بضاعته التي كانت تبدو منتهية الصلاحية من النظرة الأولى.. وأميرة..

أميرة التي لم تفارق نافذة غرفتها يومًا.. وفي كل مرة تراه فيها كانت تتراجع إلى الخلف خشية أن يبادلها النظر، والعكس تمامًا، إن رآها تنظر إليه سرعان ما يشيح بعينيه هربًا.. رغم أن كل ما بداخله يدفعه للنظر إليها.. الأمر الذي لم يجد له تفسيرًا واضحًا طوال حياته ولم يحاول أن يبادرها بالسؤال.. أو ربما لم

يكن يملك الجرأة الكافية لفعل ذلك، فكلما اقترب منها كلما بدت بعيدة جدًا رغم قربها.. رمق نافذتها بنظرةٍ أخيرة وهرب من مسحة الافتقاد الشديد.. ثم غادر إلى القصر.

***

(٤)

في طريقه كانت تحوم في عقله فكرة أن كتابة رواية عن قصة حب ملحمية ربما تحتاج إلى رجل ذاق الحب بالفعل ويعرف لوعته، ويعرف كيفية التعبير عن آلامه لكنه في نفس الوقت لا ينكر أن له قدرة على تخيل الكثير من حكايات الحب.. المبهجة والتعيسة أيضًا.. ودون أن يدري بها أحد، حتى الطرف الذي يبادله ذلك الحب.. كثيرًا ما فعل ذلك ولم يشعر أي من حوله، كان عندما تعجبه فتاة وتشعل الشرارة التي تجعل القلب والعقل صديقين يتبادلان الحوار فيما بينهم، حتى يخلق من وجودها قصة وكأنه يعرفها منذ زمن بعيد، كأن بينهما أمواجًا من العشق لا تفنى وتستحدث وتتجدد دومًا.. لكنه كان يعدل عما يدور في خلده إذا نظرت الفتاة إليه وأخرجته من أحلامه الواسعة إلى أرض واقعه.. ذلك الواقع الرتيب الذي يعود فيه قاسم الصامت الذي لا يقول ما يدور داخله أبدًا.

لم تكن رحلته إلى القصر طويلة، وما إن وصل حتى وقف أمام مدخله المهيب الذي ينقسم إلى بوابتين كبيرتين.. وتميل أخشابه إلى احتضان ألوانه التي تميل إلى الرمادي والبني الفاتح مثل لون عينيه.. لم يكن مترددًا في رغبته بالدخول لكنه لم يكن واثقًا من قدرته على الاستيفاء بالشروط إلى آخرها، بل وإنهاء ما سيُطلب منه والذي بدا وكأنه يحمل المزيد من الأسرار..

لم تمر دقيقة أو دقيقتان حتى خرج السيد عيسى ليحثه على الدخول.. وهذه المرة كان يناديه باسمه في نبرة ألفة وكأنه يعرفه منذ زمن.. مرتديًا جلبابه الأزرق الذي تلتف من حوله قماشة بيضاء تحدد الخصر وعلى رأسه عمامة لها نفس

اللون.. أخذ الحقيبة السوداء شبه المهترئة التي أحضرها قاسم معه في هدوء بالغ.. لكنه لم يستطع سوى أن يقطع ذلك الهدوء بسؤال بدا وكأنه يريد أن يسأله من المرة السابقة قائلًا:

- هل تعرف الباشا من قبل؟

- أعرفه مثلما يعرفه بقية سكان أسيوط بأكملها..

أجابه قاسم بينما يتفقد المكان وكأنه يراه للمرة الأولى.. بينما بدا السيد عيسى غير مكتفٍ بالإجابة.. أعاد السؤال بصيغة مختلفة هذه المرة:

- أقصد هل تربطك به صلة قرابة؟ إنه لا يسمح لأحد بالمكوث هنا إلا لو كان الملك بنفسه أو مبعوثًا من حكومته.. واعذرني في الـ...

قطع تساؤلات عيسى صوت الباشا مناديًا، وبدا الصوت قادمًا من غرفة المكتب التي كانت تتوسط باحة الاستقبال الواسعة ولها باب خشبي يفضي إلى غرفة واسعة مليئة بالكتب.. وفي جانبيها عامود خشبي تتزين أدراجه بطلاء بسيط من الذهب يضفي عليهما لمحة رومانية أنيقة جذبت أنظار قاسم فور دخوله الغرفة.

- أرى أنك لم تستغرق وقتًا طويلًا للتفكير في عرضي.

- لا أعرف ماذا دهاني، أظن أنني أريد أن أكتب فسرت خلف رغبتي دون أن أفكر أكثر من اللازم.. لأكون صادقًا معك يا سيدي فإن التفكير الطويل في مثل هذه الأمور يفسدها.. أو أن هذا ما أظن، واعذرني يا سيدي إن رغبت في الرحيل فجأة واكتشفت أنني غير قادر على تنفيذ المهمة التي تطلبها مني.. أظن أنك

أحببت زوجتك إلى درجة جعلتك تشيد لها قصرًا مثل هذا، وتاريخ ذلك الحب يجب أن يكون متقنًا تمامًا ككل بقعة فيه.. ألا تظن ذلك؟!

لم يرد الباشا على سؤاله.. شرد قليلًا ثم سأل:

- كم عمرك يا قاسم؟

- سأبلغ الثالثة والعشرين بعد ثلاثة أشهر يا سيدي.. هذا الشيء الوحيد الذي أحفظه عن ظهر قلب.

- أظن أن من يكتب بتلك المشاعر التي قرأتها هنا هو إنسان بلغ المشيب منذ فترة، وأقول لك ذلك لكثرة التجارب التي يجب أن يكون قد مر بها.. أعرف أنك لم تمر بالكثير، لكنك تمتلك من الموهبة والبصيرة ما سيجعلك الراوي الخاص الذي لن أندم على إخباره بكل شيء، كما أنك تمتلك من الشجاعة والإخلاص ما يكفياني.. هيا اقرأ كلماتك الخاصة وأجبني بنفسك..

أمسك السيد مراد بورقة ضمن الأوراق المبعثرة على مكتبه الواسع كي يستطيع قاسم قراءتها بصوت عالٍ، بدأ قاسم القراءة مباشرة ليجدها جزءًا من رواية مكتوب فيها:

«كيف يمكنك أن تغدو مغفلًا في هذا الوقت بالتحديد؟ اختياراتك الخاطئة لطالما غفرناها لك، ولكن خطأ اليوم لا يُغتفر، إنها «سمية»!.. كيف اتخذت قرارك بالزواج منها هكذا فجأة؟ إنها تلك الفتاة التي أذاقتك حلاوة الحب، فكيف تطفئها بكل بساطة؟.. ظل عاصم يتلفت حوله ولا يعلم مصدر ذلك الصوت، يتفقد الحائط وخزانة الملابس ولا يهتدي إلى نتيجة واحدة، وكلما ازدادت غرابة

الأمر كلما بدأت يداه في خذلانه بالانزلاق عما يبحث عنه، ظل يبحث حتى عاد الصوت من جديد يقول له: «تزوجها يا عاصم، تزوجها ولا تجرؤ يومًا على إخبارنا بأنك سئمت وجهًا صرت تراه كل صباح، أو أنك فقدت الشرارة الأولى أو الثانية ولا تعرف طريق العودة وحدك، تزوجها واقضِ على حبك لها بحياة يشوبها القلق، المناوشات، وتدخلات الآخرين، حياة لا يوجد فيها سلم الخدم أو مطفأة الحريق، حياة أبدية مع ديمومة المشاعر لنفس الفتاة»..

توقف قاسم عن القراءة قليلًا ناظرًا إلى الباشا الذي أشار إليه بيده أن يكمل.. فتابع قاسم:

«هنا بدأ عاصم يضع يده على أذنه اليسرى ببطء حتى يختفي الصوت تدريجيًا ومن ثم انتقل الصوت لأذنه اليمنى حتى اختفى تمامًا، لكنه عاد ثانية، يختفي ويعود يختفي ويعود، إلى أن أدرك أن عقله هو المصدر الحقيقي، إن الصوت يجول بخاطره دون رحمة، ولو أغلق أبواب العالم كلها سيظل يستمع إليه رغمًا عنه، ستظل مخاوفه تسطر صفحات لن تنتهي، لكنه لم يجد أمامه سلاحًا قويًا سوى قلبه الذي ينبض بعشق (سمية)، وحاول أن يستمع إليه هو الآخر لعله يمتلك حجة قوية.. ليجد الرد قادمًا بصوت أعلى من أي صوت آخر.. (أحبها...)!»

انتهى قاسم من قراءة الكلمات التي يحفظها جيدًا، ولم يظن أبدًا أن من سيمسك بها ويجبره على إعادة قراءتها سيكون الباشا بنفسه، وإن أمرًا كذلك من شأنه أن يدب فيه بعض من الثقة التي يخفيها داخله أمام الجميع.

- أحببت القصة كثيرًا يا قاسم.. ولأني لا أحب القصص بتلك السهولة قررت

أن أكافئك بالطريقة التي أراها مناسبة.. ربما ستقول إنني لا أعرفك.. وكيف لي أن أرغب في إخبارك بسري وسر الرواية التي ستكون ميراثًا لسكان المدينة، ولمصر كلها من بعدي.. لكني رجل يعرف ما يريد جيدًا يا بني، ولو طلبت ذلك من أحد الكتاب الذين أعرفهم جيدًا بل ويعرفهم العالم أجمع، فسيجعلون منه خبزًا حصريًا في كل بقعة تخطوها أقدامهم، أما أنت فأنا أعرف قدر ارتباطك بكتاباتك وقدر رغبتك في الحفاظ على مصيرها من الضياع.. أعرف الصدق في روحك يا قاسم.. وهذا هو ما كنت أبحث عنه ولم أجده سوى فيك وحدك.. ولذا فأنا أعدك أن حكايتي ستحفظ اسمك مثلما سيكرمها قلمك ويسطرها على أوراقك الغالية..

غزت الطمأنينة قلب قاسم وهو يقضي ليلته الأولى في رحاب القصر تمهيدًا للبدء في كتابة الحكاية التي شهدتها تلك الجدران، والتي ظل السيد مراد يقصها عليه طوال الليل.. حكى له عن فيروزا وعن وجهها البريء الذي اختطف قلبه فلم يستطع مواصلة حياته بالشكل الذي كانت عليه، عن المرة الأولى التي دخلت فيها هذا القصر، وأقسمت على عدم الخروج منه، ورغم أن قاسم تعجب بعض الشيء من هذا القسم والوعد الذي يبدو يسيرًا في أن تتنصل منه، إلا أنه استمع إلى كل تفصيله في القصة منذ أراد الباشا أن يتزوجها وحتى وداعها إلى مثواها الأخير.. حكى له كيف كانت شديدة الجمال إلى درجة جعلت كل رجال بلدتها يرغبون فيها، لكن جليس قلبها كان يحول دون ذلك وحتى اليوم الذي حاول عمها أن يضربها كي تتفوه بما تخفيه لكنها لم تفعل، بل وتحملت الكثير من أجل رؤيته التي كانت تجردها من شعور الخوف الملازم لفتاة في مثل عمرها تذوق شرارة الحب للمرة الأولى.

أما الباشا فلم يخفق قلبه لأحد من قبلها.. وكان يصف شرارة الحب الأولى

لقاسم وهو يقول:

- شعور غاية في الوضوح يا قاسم، قلبك ينتفض في مكانه فيؤثر لا إراديًا على طريقة تفوهك بالكلام الذي تريده، كأن عقلك يتخلى عن ذكائه بالكامل، ويقف وهو راضٍ بأن يكون مجرد ردة فعل لطرف خارجي يتحكم في كل كيانك.. ليس أكثر.

استفاض الباشا في الشرح الذي كان بمثابة افتتاحية رائعة أثلجت قلب قاسم الذي اتجه إلى النوم وبداخله يتقد شوقًا للكتابة، فلم يستطع أن يغفو سريعًا في ليلته الأولى وراح يدون العديد من الملاحظات التي من شأنها أن تخط له السطور الرئيسية والأفكار التي سينسج منها روايته. ورغم أنه يمتلك الأحداث الحقيقية أمام عينيه إلا أنه نوى أن يبدو الأمر كقصة حب أسطورية فريدة من نوعها، تشعر من تفاصيلها أنها تفوق الخيال، أراد أن يستمتع بكل لحظة من قراءته وكتابته لتلك الرواية، لعلها تكون الفرصة الوحيدة للخروج إلى العالم من بوابته المفضلة.. جلس يحلم بلقاء الأدباء من حول العالم وباستقبال عامة المثقفين الذين يلتفون حوله في تقدير للموهبة التي تتجسد أمامهم.

وفي الصباح ظل يتفقد المنزل ليجد البقعة المناسبة للانطلاق فيما يرغب الباشا في التعبير عنه، وبدأ في كتابة مذكرات الباشا وهو يقول نيابة عنه:

«كان خلي الروح يظن أن القهوة وحدها من تحتمل النظر إليه وجهًا لوجه، حتى جاءته يدها ورفعت عينيه التائهتين نحوها فارتشفت ما بقلبه وفنجانه معًا.. أحبها كثيرًا.. وأما عن الحب فالحب شعور غير منطقي بالمرة.. وإلا لماذا يقع رجل في حب امرأة تصغره بأعوام أو العكس وتراهما يقتبسان نفس رؤيتك

العادية في نظرتهما لبعضهما البعض، الحب قادر على إذابة العراقيل التي تتحكم في كل جزء من حياتنا.. الحب قادر على إذابة العالم بما فيه.. فلا يرى للعمر أو الشكل أو اختلاف الطبقات أي معنى وإن حدث ورأى ذلك فإنه يدير رأسه إلى ناحية أخرى بإرادة كاملة منه.. تاركًا أمورًا كتلك كي تواصل تحكمها في وظيفتك، طعامك أو حتى المكان الذي تعيش فيه.. أما قلبك فلا سلطان عليه.. يصير القلب حرًا لا قيد يتسع ليديه منذ الثانية الأولى التي أصبح فيها عاشقًا.. ولا يفقه الإنسان شيئًا عن الضعف إلا حينما يعشق ويشعر بأمر ما يهدد ذلك العشق».

ظل قاسم يكتب عن الحب في عشر صفحات، لا يعرف كيف يتوقف ولا يعرف من أين له هذا.. رجل مثله علاقته بالجنس الآخر هي الصورة التي يرسمها في خياله والطريقة التي ترمقه بها الفتيات حين يبتعد عنهن، لا يذكر يومًا أن حادث إحداهن لمدة تزيد على الخمس دقائق يمرون عليه بثقل شديد.. كان دومًا ما يخرج من الحديث محبطًا.. يرغب في التواصل وإرواء قلبه بما يعرف أنه يهفو إليه.. لكنه سرعان ما يكتشف أن هذا ليس ما يبحث عنه قلبه.. دائمًا ما يحدث له ذلك. ربما لطبيعة كونه وحيدًا منذ صغره، وظل قاسم وحيدًا لا يعرف صديقًا غير أمه، ومن بعدها الحياة والتي يستجديها فتعطيه القليل كل فترة طويلة. ثم كانت أميرة.. تبادر إلى ذهنه كونها الفتاة الوحيدة التي يعرفها حق المعرفة في النهاية.. والوحيدة التي تعي شكله وهيئته منذ كان طفلًا، لكنها لم تفعل به ما فعلت فيروزا بمراد.. ربما كان العطب في قلبه.. هكذا بدأ يظن.... أم أن خوفه من الرفض جعله يطفئ أي شرارة قبل أن تفكر حتى في الاشتعال.. خفق قلبه في شدة عندما وجد تساؤلات كهذه بدأت تتطرق إلى رأسه.. لماذا الآن تحديدًا.. ما الذي تغير فيه فجأة؟! وأخذ يتلفت حوله وهو ينظر إلى جدران القصر.. وقد علم

أن وجوده في هذه المكان لن يكون عاديًا أبدًا..

***

(٥)

- اتبعني يا قاسم..

قالها الباشا وهو يسير بصعوبة بسبب ملابسه الثقيلة التي تؤثر على حركة قدميه، بينما كان يتحدث عن شيء يرغب في إطلاع قاسم عليه، ويبدو أنه كان ينتظر مرور هذه المدة، ثلاثة أشهر من محاولات ذلك الفتى في التعبير عن مشاعر شخص آخر، لم تكن التجربة سهلة أبدًا مثلما ظن قاسم في الأيام الأولى من الكتابة. كانت الأمور تتعقد يومًا بعد يوم، وكلما عرف شيئًا جديدًا كان يحتل عقله في الليل ليذهب منه النوم دون إرادة منه، وكان كثيرًا ما تصيبه الدهشة من فكرة قدرة شخصين على العيش في مكان واحد.. مع التزام شفهي بعدم الخروج منه أبدًا، وحتى لو كان المكان قصرًا مثل هذا، لكنه لم يكن يجرؤ على سؤال السيد مراد مثل هذا السؤال.. وكل ما أراده أو انتوى فعله هو الوصول إلى الإجابة بنفسه، لكنه كان يعجز دومًا، فيعود خائب الرجاء في كل مرة.

كانت الحالة الصحية للسيد مراد سيئة بعض الشيء، ويبدو أنها كانت كذلك منذ اليوم الأول الذي شهد حضور قاسم للقصر، إلى أن اشتد المرض وظل يتسبب في تأجيل جلساتهم أكثر من مرة، ورغم أن السيد مراد كان يظن أن علته هي الحزن لا أكثر، فإن جسده كان يقول عكس ذلك، الأمر الذي أثر أيضًا على زيارات بعض الشخصيات الهامة إلى القصر، حيث كان يسمع ذلك دون قصد منه، ليرى السيد عيسى وهو يحادث أحد الأشخاص الذين يبدو عليهم الاستياء كمن تلقى خبرًا سيئًا للتو، وما إن يغادر هذا الشخص ويحاول أن يستعلم الأمر من عيسى فيوضح له في اقتضاب أنها مقابلة هامة قام السيد مراد بإلغائها؛ لعدم

Telegram @mbooks90

قدرته على النزول للباحة هذه الأيام.

تكرر الأمر كثيرًا في الشهر الأخير حتى وصل إلى ثلاث مقابلات ملغاة، وظل الأمر على تلك الحالة، محاولات لكتابة فصل جديد في الرواية إلى سؤاله عن الباشا فيجيبه السيد عيسى أنه لا يزال طريح الفراش، ولا يرغب في استقبال الطبيب، كي لا يؤكد له كونه مريضًا جسديًا قبل أن تكون العلة في روحه.

حتى صباح اليوم الذي توقف فيه قاسم عن السؤال، وكان ما يدور في عقله هو محاولة الخروج من القصر والمرور على منزله، رغم أنه يعي تمامًا أنه لن يجد ما يثلج قلبه مثل الأيام الخوالي، فأبوه وأمه قد رحلا، وكل من كان يؤنس وحدته قد بهت وجوده مؤخرًا إلى أن صار معدومًا.. لكنه أراد أن يستعيد انتماءه لمكانه الحقيقي ولو لبضع ساعات.. وكأن مراد باشا قد استمع إلى تلك الأفكار بالفعل حتى خرج يناديه في صمت لم ينطق فيه إلا باسمه وأمره أن يتبعه إلى مكان غريب يقبع تحت القصر.

وصلا إلى سلم حديدي ضيق صغير تسبقه بوابة من ضلفتين لهما طلاء بني وعليهما حلقة دائرية.. لمسها مراد باشا عن دون قصد وهو يقدم على فتح الباب فأحدثت صوتًا يشبه قرع أجراس في كنيسة قريبة، ظلت تهتز حتى أوقفتها راحة يده التي استقرت عليها بعد الانتهاء من فتح الباب، وما إن دلفا معًا حتى بدأ عقل قاسم يحاول ترجمة ما يراه؛ فالمكان يبدو كقبو عتيق في بداية الأمر لكنه يزيد عن ذلك بشيء أو أكثر لا يمكنك تحديدهم بالضبط، فقد وقعت عيناه على تقسيم غريب للأرض يبدو أنه من فعل خطاط ماهر، وإلا لم يكن ليخرج بمثل هذا الإتقان، أما عن الجدران فكان كل جدار يغطيه بساط فاخر شديد الجمال، فقد بدت الأمور وكأنها منعكسة وغريبة بشكل يثير الشك.. وكأن هنالك

من يعيش في تلك الغرفة الصغيرة المظلمة حيث لم تعتمد على أي وسيلة من وسائل الإنارة سوى الشعاع الذي يتسلل إليها من الخارج، أما عن النافذة فكانت مغلقة بإحكام شديد وتتدلى عليها ستارة حمراء مخملية يمكنك الشعور بملمسها الناعم من بعد.. هنا شعر قاسم بفضول كبير دفعه نحو التحرك لاكتشاف المزيد من التفاصيل، لكنه فوجئ بيد السيد مراد تستوقفه وهو يقول: احذر حركة قدميك يا قاسم فقد نجحت في الحفاظ على هذا المكان منذ اللحظة التي وضع فيها حجر الإنشاء الأول، أكثر من عشرين عامًا من القلق حياله، أكثر من مائتين وأربعين شهرًا من حراسته بينما كنت أحصل في المقابل على أغلى شيء يمكن أن يتلقاه الإنسان..

- أي شيء تقصد؟

- اجلس لأخبرك..

جلس قاسم في رهبة شديدة والسيد مراد يستكمل حديثه:

- أعرف أن ما سأقوله لك ربما يبدو غير منطقي، خاصة لشاب مثلك لم يمنحه الزمن فرصة أن يشعر بالحب الذي شعرت به، لم يختبر رغبة الرجل في التمسك بامرأة يجدها في العمر مرة.. وأنا تمسكت يا قاسم، ولو عاد بي الزمن سأتمسك مرة أخرى.

تنهد مراد قليلًا وبدأ يحكي:

- بدأ الأمر قبل بناء القصر مباشرةً.. بعد أن عرفت فيروزا ووجدت في قلبها كل هذا الهيام.. كنت قد اعتدت السفر إلى إيطاليا لمحاولة الاستفادة من

بعض الدارسين القدامى كي أتمكن من معرفة القوانين التي تحكم بلادهم قبل أن أنفرس في دراستي للحقوق.. وبالفعل حصلت على ما أريد كنت في قمة حماستي لتنفيذ ما أسعى إليه.. لكن اعترض طريقي شيئًا آخر قبل أن أعود من إحدى السفريات..

كان قاسم يعي جيدًا أن كل هذا ما هو إلا مقدمة بسيطة لما هو قادم.. وبالفعل نهض السيد مراد من مجلسه ليجلب الغرض الرئيسي لتلك الجلسة المفاجئة والتي صادفت انتهاء قاسم من سبعة فصول من الرواية التي كانت رومانسية حتى اليوم.. وبصوت خفيض أعاد الرهبة إلى قلب قاسم مرة أخرى، اقترب منه مراد باشا وهو يمسك ببضع أوراق تحمل رسمة غريبة متكررة لكن بشكل مختلف في كل ورقة، جميعها لجوهرة بلورية الشكل لكن كل جانب منها له لون مختلف عن الآخر دون أن تفضي الأوراق بالمزيد من المعلومات عنها.. هنا لم يستطع قاسم إمساك لسان حاله ليسأل عن ماهية ذلك الشيء ليجيبه مراد في هدوء:

- أنا أعرفك منذ خمسة أشهر يا قاسم.. ثلاثة وأنت في قصري واثنان وأنا على علم بكل تحركاتك، والتي لم تكن كثيرة بالشكل الذي يسبب الإرهاق لمن يراقبك.. سلمتك مفتاح حياتي في بضع أوراق، وثقت فيما قرأته وفيما سأقرأه.. لكن ما سأتلوه عليك اليوم يختلف تمامًا عما كنت تتوقعه.. فإن للرواية نهاية خاصة بي ستتعرف عليها اليوم بل في لحظتنا هذه.. انظر حولك.. هذا المكان هو سبب سعادتي وهنائي طوال هذه المدة.. هذا المكان هو ما استطاع هزيمة كل محاولات الفراق التي تهدد حياة أي حبيبين، لكنه هُزم فقط أمام الموت.. الموت هو الشيء الوحيد الذي لم أجد سحرًا في العالم يمكنه التغلب عليه..

- سحر؟ قالها قاسم مترددًا.. ليستكمل الباشا حديثه في ثقته المعتادة:

- نعم سحر، سر القصر الذي أخبرتك أنني سأطلعك عليه في الوقت المناسب.. ما تقف عليه الآن هو بقعة أرض قد تم بناؤها فوق تميمة ثمينة جدًا، تميمة تحفظ الحب في المكان الذي يعلوها وتجعل أي حبيبين كأنهما روح واحدة، ولا يمكن لأحد منهما أن يسير بعيدًا عن الآخر.. تميمة حبي وحياتي التي سأظل ممتنًا لها حتى في مماتي.

- أنا لا أصدق.. اعذرني يا سيدي.. لكني لا أصدق ذلك.

- كيف وأنا أقف أمامك بعد زواج دام كل هذه السنوات دون شجار واحد.. دون محاولة فرار أحدنا من الآخر.. حان الوقت كي تعرف ما فعلته تلك التميمة بحياتي وما تمكنت من الحفاظ عليه بوجودها.. لولاها ما كنت أنت هنا وما كنت أروي عليك قصة حب أسطورية ستتخلد في صفحات التاريخ.. قبل زواجي من فيروزا والذي كنت أعد الأيام حتى يوم بلوغه، طالت سفرتي الأخيرة في إيطاليا بعد لقاء بعض الدارسين هناك، لحاجتي إلى تسوية بعض الأمور العالقة مع صديق لي، وهناك قابلت مهندسًا إيطاليًا لم أكن أعرف كونه مشهورًا أم لا؛ لأنه ما إن بدأ الحديث حتى أنصت إلى ما يقوله بعناية، أخبرني عن تفاصيل مدهشة عن قصة السيدة العجوز التي كانت تحيا بتلك التميمة في قلادتها وكيف أنها استطاعت أن تحمي لها أجيالًا وأجيالًا من أي مكروه قد يصيبهم، كما أنها حمت الحب الأبدي الذي استمر لثمانية وتسعين عامًا بينها وبين زوجها الذي تعرّف عليها في عمر المراهقة حتى ودعته في فراش الموت.. تلك السيدة كانت والدة جدته والتي تركت له ذلك الإرث الذي لا يقدر بثمن.. لكني قمت بفعلها يا قاسم.. قمت بدفع الثمن، أعطيته كل ما طلب مني وكنت على استعداد لإعطائه المزيد شريطة أن يقوم ببناء القصر ومن تحته تلك التميمة وأن يخبرني بكل الشروط

التي تحول دون منحنا السحر الذي ينبعث منها.

- وهل قام ببناء القصر عليها؟

- نعم.. قام بذلك.. لقد أخبرني أنه كي يعمل السحر المنبعث من التميمة يجب أن نعيش أنا وحبيبتي في القصر لا نهجره للمكوث في مكانٍ آخر أبدًا، أي أننا لا يمكن أن نسكن في قصر آخر، يمكننا الخروج والارتحال مع العودة إليه في نهاية المطاف، أن نعتبره عش الحب الأبدي الذي سيحفظ لنا بدوره استمرار كل المشاعر الجميلة التي نتبادلها يومًا بعد يوم.. لم أستطع أن أقرر قدرتي على فعل ذلك في البداية.. فربما أشعر بالرغبة في بناء قصرٍ غيره في المستقبل.. لكن الحب كان يستحق، وفيروزا كانت المصدر الوحيد لهذا الحب.. تحملت فراقها قبل أن تصبح معي وكنت غير قادر على تحمل فكرة أن تتمكن من هجري مجددًا.. ووافقت أنا على الشرط لكني لم أخبرها، وكل ما أخبرتها إياه هوأنني أقدّس هذا القصر بشدة لأنه شهد ميلاد حياتنا السعيدة معًا، ولهذا أريده أن يحتضن حبنا إلى الأبد.. ومن حسن حظي أن تلك الفكرة بدت لها غاية في الرومانسية ووافقتي على الفور إلى درجة جعلتني أشعر بالذنب قليلًا لعدم إخبارها بالحقيقة، لكنني كنت سأشعر بما هو أشد من الذنب إن لم ترغب فيما رغبت به.

- ألا تعتقد أنك سلبتها الاختيار بهذا؟ اعذرني يا سيدي لكني أظن أن الحب هو القانون الوحيد الذي لا يصدق عليه من قبل شخص واحد ولا مجموعة أشخاص بل من شخصين اثنين كلاهما يعي ضرورة التمسك بذلك القانون..

- وإن امتلكت الفرصة يا قاسم هل سيكون لك نفس الرأي الذي تخبرني به

الآن؟!

نظر مراد إلى قاسم نظرة لم يفهمها، لكنه لم يرغب في الخوض في مزيد من الأفكار الداخلية التي تذهب عقله كالسّكّير في كل مرة يستسلم إليها، ماذا يقصد بالفرصة، هذا ما لم يقدر على استيعابه من الوهلة الأولى وانتظر ليستمع إلى بقية الحكاية والسر الذي لم يكن ليتوقعه أبدًا!

- دعنا من كل هذا.. فيروزا لم ترغب يومًا في الانتقال من هنا فمنعتها، كانت تحب الحياة معي مثلما أعشقها، كل ما في الأمر أنني كنت أعرف أن احتمالية الفراق غير موجودة طالما أنها تفعل ذلك، ألم يكن لي الحق في عيش تلك السنوات من الإخلاص مع المرأة التي اختارها قلبي وعقلي وجسدي معًا؟! تلك التميمة هي ما منحتني هذه الحياة ولا أظن أنني كنت لأتخلى عنها يومًا.. انتهى المهندس حينها من بناء القصر وأخبرني أن التميمة قابعة تحت أرض ذلك القبو، ولذا كنت أحاول الاهتمام به قدر الإمكان حتى ولو لم يكن ذلك ضروريًا.. وما إن استعد للسفر إلى بلاده حتى أخبرته أن حياته ستكون مقابل إفشاء هذا السر لكني كنت أعرف أنه لا يمتلك أية مصلحة في إفشائه، فكيف سيقوى على إقناع الناس بامتلاكه تميمة مثلها، بل إنه منحني إياها مقابل المال، رغم أن المال كان كثيرًا بل كان كل ما أمتلك من ميراث عائلتي، لكني كنت مستعدًا للتضحية بكل شيء.. كل شيء مقابل حب لا يفنى يا قاسم.. وها أنت الرجل الثالث من بعدنا الذي عرف بهذا السر لتوه..

- ولماذا تثق في عدم رغبتي في إفشائه؟

- أنا لا أثق بأحد ولن يأتي اليوم الذي أفعل فيه ذلك، لكني أعرف طريقًا إلى

قلبك يا قاسم وها أنا أسلكه بالانتهاء من تلك الرواية أولًا.. والتي ما إن تُستكمل بالفعل حتى يعرف كل الناس ولتتخلد سيرة القصر مثلما تخلدت سيرتنا أنا وزوجتي الحبيبة.. سيكون هذا بمثابة التكريم الذي أردته طوال عمري..

- هل القصر هو سبب وجودي هنا؟ تريد تكريمه على تلك السنوات؟ ظننت أن الأمر عن قصة حب لا أكثر ولا أقل..

- لنواجه الأمر، من منا سيرفض مثل هذه الفرصة؟! حب مدى الحياة وحل عاجل للغز الفراق الذي لا يفارق غرفة حبيبين طال بينهما اللقاء!

غاص عقل قاسم هكذا في التساؤلات من جديد مع عجزه التام على إيقافها هذه المرة، وما كان منه إلا أن أومأ برأسه لمضيفه وهو يقول:

- لم أستوعب كل ما سمعته الليلة يا سيدي.. لكني أعرف أنني أريد استكمال الرواية رغم كل شيء..

برقت عينا الباشا في لهفة وهو يرد:

- وستفعل! ستفعل لأنك تريد ذلك، ولأن الأوان قد فات يا صديقي الصغير..

- ما الذي فات يا سدي؟؟ ماذا تقصد؟

لم يرد الباشا وإنما قطع حديثهما همهمة السيد عيسى قادمًا من السلم الحديدي المؤدي إلى القبو وهو ينادي بعيدًا: وصل الوفد يا سيدي..

سأل الباشا:

- وسارة معهم؟

- نعم.. وصلت هي الأخرى.

فوجدته يبتسم وهو ينظر إلي. ثم تحركنا إليهم.

***

(٦)

كان شعرُها الذهبي يتدلى فوق ظهرها محاولًا إخفاء القوام الممشوق من تحته، ليظهر ما هو أجمل من ذلك، فستان طويل يضيق على الخصر ثم يتسع من بعده مكونًا دائرة كاملة تسير على الأرض في ثقةٍ وشموخ، لم يستطع قاسم رؤية الوجه الذي يتقدم هذا الاستعراض الحافل إلا عندما نادى السيد «مراد آزاد» بصوته الوقور:

- سنيورينا سارة..

لتستدير في حفاوة بالغة وتحمل ما استطاعت إليه سبيلًا من الفستان، ترفع أطراف الثوب في رقة وتسير في اتجاههما، وهنا يظهر وجهها الملائكي وبشرتها البيضاء شديدة الرقة يداعب خدها الرقيق النمش الخفيف المتناثرة على وجنتيها وأنفها الصغير، والذي يضفي لمسة أوروبية لم يرَ قاسم مثلها في حياته، رغم أنه كان هناك عدد لا بأس به من الأوروبيات من زوجات الفلاسفة والمحاضرين في الجامعة ممن يرغبون في الانضمام إلى جلستهم..، لكن سارة كانت لها هيئة أخرى وحضور آخر.. كانت تملك أحد الوجوه التي تعبر عن الجمال الطاغي بثقة تامة، ورغم شعرها المنسدل بطول ظهرها إلا أنه كان يبدو من الأمام كأنه قصير؛ إذ تستند خصلاته على كتفيها وكأنهما يرغبان في الحديث قبل أن تتحدث صاحبتهما، ولها حاجبان شقراوان يبدوان وكأنهما قطعة من الشمس تستنير بهما في أي طريق مظلم، طلة مختلفة تفاجأ بها قاسم الذي خرج لتوه من طور المراهقة ولم يظن أن هنالك وجود لشخصٍ يحمل تلك الهالة من الجمال حتى رآها أمامه.. وازدادت الهالة أكثر عندما ردت سارة التحية إلى السيد

مراد قائلة:

- سيدي، مرحبًا بك.. لقد جئت منذ عشر دقائق لكني كنت أتحدث مع باقي أفراد الوفد قليلًا حتى يمكنهم الاعتياد على مناخ قصرك المهيب..

- لغتك العربية تحسنت كثيرًا عن آخر مرة أيتها الجميلة، أريد أن أشكر أساتذتك وجهًا لوجه إن أردت الحقيقة.

- الفضل في ذلك لا يعود لأساتذتي فحسب، بل لأبي ومحاولاته الفاشلة التي سرعان ما تبنت نجاحًا عظيمًا في نطقي لاسمه.. لقد حكيت لك هذا من قبل هل تذكر؟!

أجابها بابتسامة عريضة:

- بالطبع أذكر، فأنا أمازحك لا أكثر، إن أباك قد قدّم معروفًا لك وللبشرية كلها يا سنيورينا.. هيا تفضلي بالجلوس لابد أنك منهكة من السفر.. دعيني أرحب بالبقية أولًا ثم لنتحدث عن خطتك لهذه الإجازة..

كان قاسم يراقب الحضور أثناء تجاذب أطراف الحديث بين سارة والسيد مراد دون أن يعي سبب تواجدهم، كل ما فهمه وأدركه أنهم ليسوا مصريين، أما عن الجميلة التي تحدث الباشا فكان شعور الفضول بداخله يدفعه للسؤال عنها في عجالة، لكنه لم يستطع التصرف دون الرجوع للرجل الذي يدين له بكل قواعد الذوق والأدب.. ولهذا حاول أن يتماسك في لهفته وفضوله حتى يتمكن من معرفة الأمر بسلاسة وانسيابية؛ كي لا يبدو عليه ممن يتدخلون في شئون الآخرين، ظل يحادث لنفسه لدقيقتين حتى ناداه مراد ليقدمه بشكل رسمي إلى

ضيفته وهو يقول:

- هذا قاسم.. صديق لي، أرادت الأيام أن تكرمني به في نهاية المطاف..

تساءلت سارة في قرارة نفسها أي صديق هذا الذي يتحدث عنه؟! فمن الواضح أنه شاب في العشرينيات من عمره، كما أن السيد مراد لا ينعت أحدهم بصديقه أبدًا طالما أنه لا يعيش معه في نفس المكان ولا يأكل من طعامه، لابد أن علاقتهما وطيدة لسبب غير مفهوم.. في حين امتلأ وجه قاسم بحمرة الخجل وواصل لمس وجنتيه بطريقة غريبة تعجبت لها سارة في البداية، لكنها سرعان ما أجبرتها على الابتسام فيما بعد.. وما إن انتهى مراد من الحديث عن موهبة قاسم الكبيرة في الكتابة وروايته التي قرأها ونالت إعجابه بشكل مدهش وعن سيرة أهله الطيبة وحياته في القاهرة، ليكون من رواد أول كلية مستقلة للآداب تنشأ في مصر حتى انتقل للحديث عن سارة قائلًا:

- سنيورينا سارة، ولا تستغرب إن استمعت إليها تتحدث العربية بطلاقة مع لَكْنَتها الإيطالية التي لا تنفصل عن اللسان بالطبع، لكن والدها مصري ووالدتها إيطالية وقد عاشت طوال عمرها تتردد بين البلدين حتى جمعت من الثقافات ما يكفيها لعقود..

رد قاسم:

- أهلًا سنيورينا..

قالها قاسم وهو يخشى المبادرة بمد يده، فهو أمر لم يعتد فعله في بلدته ولا حتى في المدينة كلها، فكيف يمكنك أن تبادر بلمس يد فتاة لا ترى وجهها بشكل

كامل... ولم تتفرس ملامحها إلا من خلال الفراغات التي يتيح لك اليشمك أن تغوص داخلها، لكن تلك الفتاة التي تقف أمامه كان قد حفظ كل تفصيل من ملامحها عن ظهر قلب ورغم محاولات فستانها أن يشتت انتباهه إلا أن انتباهه بالكامل كان منصبًا على عينيها، لكنه في النهاية لم يبادر بالتحية، الأمر الذي أجبرها على اتخاذ الخطوة الأولى تجاهه، فقامت بمد يدها في حركة لا إرادية وما إن استجاب لها حتى أكمل ما كان سيقوله:

- سنيوربنا سارة، اعذريني أتلكأ في قول اسمك لكني لم أعتد مناداة إحداهن بقول سنيورينا في البداية، في الأغلب أقول مادموزيل أو ربما آنستي أو ربما أتهرب من التسمية ولا أبدأ في الحديث من الأساس؛ تفاديًا لكل هذا اللغط.

ابتسمت سارة ابتسامة واسعة حتى إنها أصدرت صوتًا خفيضًا رغمًا عنها.. وتداركت ما يقول وبدت على استعداد ورغبة في سماع المزيد لولا تدخل الحاضرين ممن كانوا يتساءلون عن موعد بدء الجلسة التي ستجمعهم مع السيد مراد وبقية العامة المثقفين الراغبين في تبادل الآراء.

اقترب أحدهم ليقطع حديث قاسم وسارة والذي كان يتطلع إليه مراد بشغف، وهو يحادثها بالإيطالية بكلمات لم يستطع قاسم أن يستنبط منها شيئًا إلا عندما أخبرته سارة أنهما يرغبان في البدء.

لم يكن يعي قاسم ما يجري حوله، ورغم أن كلمة الوفود تلك قد تكررت على مسامعه أكثر من مرة منذ دلف إلى رحاب القصر إلا أنه لم يفهم جيدًا ما هدف تواجدهم حتى تملكته الشجاعة هذه المرة وراح يستفسر من السيد مراد عن الأمر والذي أراحه قائلًا:

- إن القصر كان ولا يزال بوابة مفتوحة لكل فنان يا قاسم.. أنت لست الفنان الوحيد الذي أعرفه، قبل وفاة زوجتي بسنوات قليلة ذاع صيت القصر بشدة حينما شهدت المدينة زيارة الملك وزوجته، وكما تعلم فإنه لا يترك مكانًا دون أن يرغب في معرفة سبب وجوده هنا، ومن حظي الجيد أنه أعجب كثيرًا بالقصر وبدقة وجمال الطراز الأوروبي الذي يتكون منه، ومن هنا حاولت استغلال الأمر وإكرامه كي يبيت في إحدى الغرف ليوم أو اثنين.

- نعم، أنا أعرف هذا جيدًا!! لطالما كان يحكي لي والدي عن زيارة الملك لبلدتنا، لكني لم أكن أصدقه لأنني لم أره ولا مرة، هكذا اعتقد طفل مثلي لا يلام على تفكيره بالطبع.

- بل إن الأمر حقيقي كما أخبرتك تمامًا، فما إن رأى الملك جمال القصر وهيبته من باخرته النيلية حتى أراد زيارته والتعرف على صاحبه، ومن يومها وأنا «مراد باشا آزاد» كما عرفني الناس، فقد منحني لقب البشوية فور رحيله وصار القصر أكثر من مجرد عش للحب لكل هذه السنوات بل نافذة مفتوحة لكل الثقافات الخارجية والداخلية أيضًا، ومن يومها قررت أن أستقبل أيًا من الوفود التي تستقدمها الحكومة لإثراء التبادل الثقافي بيننا وبين بلادهم، وكما كانوا يستقبلون طلابنا في البعثات كنت أستقبل طلابهم أيضًا بل وطبقة واسعة من عامة المثقفين كل بضعة أشهر.. أريد لهذا أن يحدث للأبد يا قاسم حتى بعد وفاتي..

لم يرد قاسم صيغة الرغبة والتمني التي خصه مراد باشا بها؛ فما هو إلا راوٍ للحكايات التي تحدث وليس خالقًا لها، لكنه شعر بالارتياح حينما فهم ما يدور حوله، وأن كل الحاضرين سواء كانوا طلبة للعلم أو عامة مثقفين فإنهم

يشتركون معه في شيء واحد ألا وهو حب الفن بمختلف أنواعه.

جلس كل واحد من الحاضرين في مكان مخصص له، وكأن كل شيء قد تهيأ في غضون ثوانٍ بفضل السيد عيسى الذي قرر أن ينشغل في ذلك، بينما يتجاذب الباشا أطراف الحديث مع ضيوفه عن برنامجهم اليومي والزيارات التي ينتوون القيام بها في فترة مكوثهم في مصر، وما إن ترأس السيد مراد المجلس وإلى جانبه سارة والتي بدت أكثر قربًا إليه من البقية عن قصد حتى دعا قاسم إلى الانضمام إليهم في غير تردد؛ مما جعله يتخبط بينه وبين لسان حاله بعض الشيء قبل أن يمكث في أقرب نقطة مقابلة لهما.. دار الحديث عن كل شيء تقريبًا له علاقة بالفنون.. فقد كان لكل طالب من الطلاب رغبة في التعرف على فن معين أو جانب خاص من الحضارة المصرية القديمة، وربما اللغة أيضًا، بينما كان منهم من يرغب في رؤية الآثار الإسلامية والقبطية، وربما معرفة تاريخها.. منهم من كان يتحدث عن الكتبة والمؤلفين وهي الفقرة التي جعلت قاسم ينتفض عن صمته ليتحدث بثقة عن كثرة الموهوبين في هذا المجال، ورغم أنه بدا كمن يتحدث عن نفسه إلا أنه كان لحديثه أثر طيب في نفوس الحاضرين في نفس سارة بالتحديد..

كانت من الفتيات اللاتي يقدرن الموهبة ويعرفن جيدًا الفنان الحقيقي من وسط ألف رجل عادي، ورغم أنها فتاة عشرينية لم تمتلك من الخبرة ما يؤهلها إلى قراءة الناس إلا أن تربية أبيها عودتها على التمحيص والتدقيق في كل كلمة يتفوه بها من تحادثه، فكانت تتمتع بالذكاء الكافي لفعل ذلك وخاصة في تلك الليلة.. والتي امتلكت أثرًا خاصًا بوجود شاب مصري يعكس الحضارة بأكملها وكأنها تجسدت في روح تجلس معهم للمرة الأولى، سألت قاسم فجأة دون أي

مقدمات:

- قل لي يا قاسم.. لماذا تكتب؟

لم يتردد في الإجابة، رد مباشرة:

- عندما تناديك الكتابة وتصطفيك دون الآخرين.. فما عليك سوى أن تجيبين النداء، الأمر ليس سهلًا وليس اختيارًا أيضًا.. لكنه يصبح انسيابيًا يومًا بعد يوم، كل ما عليك هو أن تعي حجم النعمة التي جاءتك طوعًا كي تمكنك من عيش تجارب لن تقترب منها سوى في خيالك.. أكتب لأنني أحيا في كتابتي عالمًا أصل إليه أسرع كثيرًا من الحياة الواقعية، أكتب لأن في كتاباتي أستطيع أن أحب وأن أشتاق بل وأجرح أيضًا إن لزم الأمر.. أستطيع أن أجذب كل سعادة العالم وأن ألفظها في آنٍ واحد، أستطيع أن أجد كنوز الدنيا وأن أستدعي عجيبة جديدة من عجائبها دون أن أتحرك قيد أنملة من مكاني، أظن أن السؤال الصحيح هو لماذا لا تكتب دومًا يا قاسم؟!

كانت قدرته على جذب انتباه الناس هبة لا يبذل أي مجهود في استدعائها، وهي ما تحركت بالفعل لتأسر رغبة الحاضرين في السماع إلى المزيد لولا ضيق الوقت الذي ألهمهم إلى انتهاء الجلسة المعتادة والتي يبدو أنها ستتكرر بعد أيام قليلة كما قال السيد مراد بعدما شكر الحاضرين واحدًا تلو الآخر.. وخص قاسم بالشكر بطريقة جعلته يشعر بفرحة ممزوجة بالثقة التي يحتاجها كثيرًا.. خاصة بعد علمه بسر التميمة التي تنظر إليهم من الأسفل والتي ستضطره إلى أن يثب وثبة أدبية سريعة في روايته كي يتحدث عنها بالنحو الذي أراده السيد مراد.

ما إن تحرك الجميع كي يبادلوا مضيفهم تحية الوداع حتى استغلت سارة تلك

الفترة الزمنية من الوقت لتقترب منه كي تسأله في هدوء:

- أخبرني السيد مراد أنك تعيش هنا.

- نعم، أعيش هنا منذ بضعة أشهر ويبدو أن تلك المدة ستطول لأكثر من ذلك.

- اعذرني لتطفلي ولكن كيف تعيش مع رجل لا تعرفه إلا منذ تلك المدة القصيرة فقد جئت إلى هنا مرات كثيرة ولم أرك من قبل؟! يبدو أن مسألة وجودك حديثة العهد..

- هي كذلك بالفعل، لكن.. يمكنك اعتباري في مهمة رسمية أقدمها لهذا الرجل الرائع الذي يستحق أكثر من ذلك.

ابتسمت سارة بعدما أدركت بذكائها أنه لن يقول المزيد، مما أثار فضولها الشديد تجاهه وجعلها تنتوي اكتشاف الأمر يومًا ما عن قريب، حتى ولو اضطرت إلى سؤال الباشا نفسه، فإنها تمتلك الرصيد الكافي من الثقة كي تفعل ذلك، ولهذا لم ترد معاودة السؤال بصيغة أخرى كي لا تثقل كاهل قاسم بأمر خارج عن سيطرته كما يبدو، وقبل أن تسير في رحلة الأفكار والتخمينات أراد قاسم أن يبادر بتغيير الموضوع في سلاسة وهو يقول:

- ماذا عنك؟ أي نوع من الفن تعشقين؟

- العود، العزف على العود، أريد أن أصبح أشهر عازفة عود عرفها التاريخ.

لمعت عيناه في سعادة:

- أظن أن الحماس الذي تتحدثين به كافيًا لفعل ذلك.

(٧)

قبل سنوات..

كم عام مر عليهما.. لم تعد أميرة تذكر شيئًا.. ربما خمسة أو ستة أعوام.. في ليلة ما جلست قبالة طاولة بُنيت من الخشب؛ تحاول إشعال لمبة صغيرة.. تقف في نهاية الطاولة بتحدٍّ مثير للغضب، كانت أميرة أكثر هدوءًا وهي صغيرة حينئذ.. أكثر هدوءًا من أن يثير غضبها شيئًا كهذا.. وكأنها تعي نهاية كل القصص الحمقاء، فتترفع بنفسها عن دخول المعارك الصغيرة.. ولهذا ترفع يدها في إصرار من جديد في محاولة إتمام عملية احتكاك ناجحة لعود الثقاب العنيد حتى يستجيب إليها في نهاية المطاف.. وما إن يتولى النور مهمته حتى تنكفئ الفتاة الشابة على لملمة الأوراق المتناثرة أمامها وتمسك بريشة قصيرة وتغمسها في الحبر الأسود القاتم بهوادة ثم تكتب بضع كلمات، جميعها بالفرنسية، بينما تدقق النظر في كل كلمة على حدةٍ، وتتأكد من صحتها بعدما تنتهي من مقارنتها بالورقة الأصلية التي تبدو كمرجع صغير لما تتعلمه.. تنحني أكثر وأكثر حتى تتقوس بشكل دائري أمام الطاولة ورغم التحذيرات المستمرة من والدتها كي لا تفعل ذلك.. إلا أنها تستمر في البقاء على هذا الوضع العَسر حتى ترضى عما كتبته وتتأكد أنها لن تخطئ فيه من جديد.. وحينها تتراجع في زهو وتنظر لأعلى في إشارة إلى ميلاد حلم صغير آخر في عقلها الكبير الذي لا يتسع لشيءٍ سوى الأحلام.

كانت تظل هكذا حتى يقطع شرودها نبرة صوت قاسم التي تغيّرت قريبًا، وقد بلغ السادسة عشرة سنة، وكأنه أصبح ولدًا آخر عن الولد الذي تعرفه.. تأذن له

والدتها بالدخول بعدما نادت عليها بصوتٍ عال وأمرتها أن تترك ما تفعله وتأتي كي تساعدها في تجهيز الطعام الذي سيحمله هذا الصغير إلى منزله.. فتتجه صوبهم بينما تعدل ثيابها التي كثيرًا ما تميل إلى الأسود والأزرق وتُحكم إغلاق الملاءة الحريرية حول خصرها النحيل كي تساعدها في إخفاء جمال بَهي يلحظه القريب والبعيد.. وعلى عتبة الباب تقف قبالته ليسألها عن حالها ويبادلها تحية لطيفة هادئة كعادته.. لكنها تجيبه بالفرنسية وكأنها صارت ضليعة فيما تقول.. ثم تعلو ضحكاتهما سويًا حين تكتشف خطأها وتعترف له أن ما قالته لا علاقة له بالتحية على الإطلاق. إلا أنه يحدثها بجدية بعد كل شيء ويؤكد لها أن خطواتها ستكلل بالنجاح، وأنه يراها معلمة عظيمة في المستقبل القريب.. بل وصاحبة أجمل لكنة يمكن لفتاة عربية أن تتحدثها أيضًا.. وحينها فقط تخفت الابتسامة على وجهها لترتسم في قلبها وتقول: أتريد تعلم الفرنسية معي يا قاسم؟

***

لم يكن قاسم يعرف شيئًا عن العود ولا كيفية العزف بالطريقة التي يتميز بها الشرقيون عامة والمصريون خاصة، لكنه ولسبب غير معلوم تمنى لو كان يمتلك الكثير من التفاصيل والمعلومات الكافية كي يعاون سارة فيما تود الوصول إليه، حتى إنه فكر بينه وبين نفسه أن يسعى لعرض المساعدة عليها، حتى ولو لم يكن الشخص المناسب لفعل ذلك، لكن الأمر بدا وكأن هنالك قوة خفية تدفعه لفعل ذلك.. وتبقيه على خيط طويل من الفضول.

مرت ليلة الحشد ومن بعدها ليلة احتفال بسيطة بحضور هؤلاء الأغراب يطلبون العلم والفن في قصر السيد مراد، ولشدة كرمه كان القصر يزخر بأطايب الطعام والمشروبات التي تعكس ثقافة البلدة وروحها.. إلى جانب ثقافتهم بشكل

أو بآخر.. كانت لمسات بسيطة لكنها كانت فارقة.. وبمزج راقٍ وبسيط تمكن من إرضاء الجميع الذين كانوا يسيرون في باحة القصر يتبادلون الأحاديث والمجاملات العابرة وعلى وجوههم ابتسامة واسعة راضية.. لكن الابتسامة الوحيدة التي كانت تلفت النظر بشكل واضح هي ابتسامة سارة.. كانت تعكس حجم العفوية التي تمتلكها والقدرة على التواجد في أكثر من مكان في وقت واحد، كانت تسير جيئة وذهابًا، بينما تعتبر نفسها المسئولة عن الترفيه عن الجميع وإرشادهم إلى ما يريدون، وهو أمر أدهش قاسم بشكل كبير، فها هو يمكث في القصر طوال هذه المدة ولم يتمكن من تبني الشعور المبالغ فيه بالألفة الذي يسيطر على تحركات سارة.

وفي استجابة سريعة لتساؤلات عقله الذي يدعي الصمت أغلب الوقت، شعر بيد السيد مراد على كتفه وهو يباغت مرمى بصره الذي يرتكز على الفتاة الجميلة:

- إنها تذكرني بفيروزا.. لا أقصد شكلها وهيئتها بل رغبتها في عيش الحياة بأكبر قدر ممكن من الأمل، إنني لا أشعر حولها بالملل أبدًا رغم حياتي التي لم يعد الزمن فيها أمرًا مهيبًا كما كان..

- هل تعتاد المجيء هنا كثيرًا؟

- نعم، سارة هي الطفلة الوحيدة التي تعرفت على كل ركن في القصر منذ صغرها، كنت على صلة عمل بوالدها، هو نفسه الشخص الذي أخبرتك أنني ذهبت إلى إيطاليا للقائه في المرة الأولى، والمرات التي تلت ذلك، قبل أن أتعرف على المهندس الذي حدثتك عنه، إن والدها كان صديق عمري وأردت لعائلته

أن تحيا في نعيم الثروة التي صرت أمتلكها، فأنا لا أنكر كونه أحد الأسباب غير المباشرة للوصول إليها، وكلما كانت تأتي سارة إلى هنا كنت أحزن كثيرًا وقت استعدادها للرحيل، لكني أقدرها وأحترم رغباتها في المكوث مع والدها طوال هذه الفترة.. فهو الأمل الوحيد المتبقي لها من تلك الحياة، كما أنها فتاة طموحة وأعرف أنها ستلاحق طموحها إلى آخر دقيقة في عمرها.. لذا فقد كانت أكيدًا ستعود لدراسة الشيء الذي تحبه حتى ولو كان على سبيل الترفيه.

- هل تقصد عزف العود؟

- العود أو غيره، كلها فنون وأنا أحترم حسها الفني في استيعاب حجم الموهبة والإرادة التي يتطلبها الأمر لكنها لا تتوقف أبدًا عن اللحاق بهما ومحاولة امتصاصها من كل من حولها.. وأنا أعي ما أقول حين أقول امتصاصهما فأنا أشعر أحيانًا أنها تجذب الموهبة من داخل الأشخاص الذين تقابلهم.. احذر منها ليست فتاة بسيطة كما قد تبدو لكثيرين!

قالها مراد باشا مبتسمًا ابتسامة لم يعهدها قاسم منذ اليوم الذي سكن فيه رحاب القصر، لكنه كان يحترم السبب الذي دفعها للخروج هذه المرة، فتلك الفتاة تبدو وكأنها أمر جلل لا يمكنه المرور عابرًا في حيز وقتك دون أن تلتفت إليه.. كأنها تفرض روحها على كل شيء.. موجات الصوت والأشعة الضوئية القادمة من كل مكان وحتى دائرة أفكارك التي لا يراها أحد غيرك تأخذ جانبًا منها كي تقيم فيه غرفتها الخاصة دون إذن منك أو سابق إنذار.. وهو ما لم يزعج قاسم أبدًا بل كان مرحبًا بكل ما يحدث على العكس تمامًا، كان يرغب في المزيد وطوال فترة التحضير للحفل ظل يراقب الكثيرين من الحضور وهو يترقب وصولها دون أن يدرك حجم الوقت الذي أهدره في فعل ذلك.

في البداية ذكرته بأميرة.. تحديدًا في انطلاقها، وكان يخشى كثيرًا تلك الفكرة، فكلما حدثته سارة عن الأحلام، تذكر مفهوم أميرة عن ملاحقتها.. وكأن هنالك جسرًا غريبًا يصل بينهما، فكلما ظن بينه وبين نفسه أنه يرى هذا القدر من الجمال لأول مرة تبادر إلى ذهنه صورة الجمال الذي كانت تخفيه أميرة عن الجميع لكنه كان يراه رغمًا عنه وعن أميرة ودون قصد في مواقف طارئة مختلفة..

ظل يتلفت يمينًا ويسارًا قبل أن يأتيه السيد مراد ويفتتح معه هذا الحوار حتى رآها تنزل على الدرج في انسيابية ونعومة تجعلك راغبًا في النظر إليها إلى الأبد دون الشعور بالملل، وما إن وصلت إلى باحة القصر حتى وقعت عيناها على قاسم، فارتبك ونظر إلى الأرض يتفحص شيئًا لا وجود له، لكنها لم تكفَ من ذلك.. انتهت سريعًا من الترحيب بالحضور في يوم جديد مثل هذا، ثم توجهت إلى حيث يقف قاسم والباشا.

- هل تتحدثان عني؟

قالتها في شجاعة بالغة لم يتوقعها قاسم ولكن انتظرها مراد دون شك من ناحيته ليجيبها:

- نعم يا جميلتي وهل لي ألّا أتحدث عنك عندما أراك؟ كان يخبرني قاسم أنه يرغب في تعلُّم عزف العود مثلك تمامًا، ولهذا فقد نصحته بالتعاون معك وسلك المسار الذي ستسلكينه في فعل ذلك، ألا يجب أن يتنزه الفن في حديقة واحدة؟

- حقًّا؟

سألت سارة وهي تنظر إلى قاسم في حماسة ليجيبها مؤكدًا على كلام الباشا

الذي لم يكن يعلم عنه شيئًا:

- نعم، ولِمَ لا؟ فأنا أحب الكتابة وكثيرًا ما أرغب في الاستماع إلى شيء قبل أن أكتب؛ فما بالك لو تمكنت من العزف بنفسي ولنفسي أيضًا؟

- سيكون الأمر ممتعًا إلى حد كبير، فقد أحضرت العود معي ودونت بعض الخطوات التي أعرفها في بداية النوتة الموسيقية يمكننا التدرب عليها معًا بعد انتهاء الحفل، وأعدك أنك إذا التزمت سأجلب المزيد من التعليمات من أي فنان مصري سأستطيع الوصول إليه طوال فترة مكوثي هنا.

- متى تنوين الرحيل على أية حال؟

- علي أن أعود قبل انقضاء ثلاثة أشهر على الأقل، علي الاعتناء بأبي في نهاية المطاف، كما أنني سأعود للدراسة مرة أخرى؛ كي لا تفوتني بداية العام.

دراسة وعزف وثقافة وجمال، من أين ظهرت له تلك الفتاة وكيف ومتى سترحل عن ذهنه مثلما سترحل عن عالمه؟! أسئلة لم يستطع قاسم الإجابة عليها أبدًا، وكل ما استطاع أن يفعله هو أن يصبح ردة الفعل المناسبة التي تشجعها على المكوث معه لأطول فترة ممكنة، وقد نجح في ذلك بالفعل لشهرين أو ربما أكثر منذ أن أصر السيد مراد على بقائها معه طوال فترة إقامتها في أسيوط، صار روتين صباحها المعتاد أن تحتسي القهوة في الحديقة الخلفية وهي تنظر بخيبة أمل إلى نافذة قاسم في انتظار لحظة استيقاظه وانضمامه إليها.. وهو أمر كان يتعمد تأجيله؛ حتى يتسنى له مراقبتها وهي تحتضن الفنجان كعصفور صغير بين كفيها الناعمين وتستشعره أولًا قبل اقترابه من فمها والاستقرار على شفتيها بعد استنشاق ما تيسر لها من رائحته وعبق دخانه

الشفاف في كل يوم.

لكنه لم يستطع مقاومة الأمر بعد مرور عدة أيام وقرر النزول كي يقاطع تلك المسرحية البديعة التي يستمتع بمشاهدتها، وما إن نزل إليها واقترب بخطواته منها حتى شعرت به فلم تنتظر حتى يبادر بالتحية.

- صباحك خير يا سيد قاسم، استيقظت مبكرًا عن كل يوم.. قالتها بابتسامة ارتسمت على شفتيها دون أن تستدير إليه حتى مما أثار فضوله ليعرف كيف توقعت قدومه وإذا بها تستدير هذه المرة بعدما سألها بطريقة مباشرة لتجيبه:

- أنا لم أستمع إلى خطواتك أو أشتم رائحتك كما تتوقع أن أخبرك، كل الحكاية أنني أراك تقف في نافذتك كل صباح مثلما تراني تمامًا، وعندما اختفيت منها فجأة توقعت أنك اتخذت قرار النزول إلي أخيرًا بعد أيام من التفكير.

- هل يوجد شيء لا تعرفينه؟ لماذا أشعر أنني مقروء أمامك دون بذل أي مجهود من ناحيتي؟!

- هذا لأنني أريد قراءتك يا قاسم، وكل الحكاية أنني أستطيع فعل ما أريد طالما تملكتني الرغبة الشديدة في ذلك.

- ولماذا أشعر أنني أريد قراءتك أيضًا لكني لا أستطيع؟!

- لا، أنت تستطيع لكنك لا تحاول، وكأن هنالك ما يعيدك خطوة للوراء كلما تقدمت واحدة للأمام، وكأنما هنالك شخص مسئول عنك يبقيك على مسافة آمنة من الجميع ويستحضر وسائلك الدفاعية كلما حاولت أن تتناساها وتفعل شيئًا نابعًا عن قوة الإرادة أو حتى على سبيل المغامرة!

- هذا الشيء هو قلبي!

- أعرف..

قالتها بالطريقة التي اعتادها قاسم في طريقة ملاحظتها لكل الأمور من حولها وطريقة التعبير عن فراستها الشديدة التي لا تنقص أبدًا بمرور الأيام، لكنه تساءل ما إذا كانت تعي ما يعيق قلبه عن السعي إليها.. فإن كان للقلب سلطة فهل تعلم لماذا يحاول فرضها عليه وهل تعلم أنها الشخص المخول بحل تلك القضية..

لكنه لم يتمكن من الغرق في بركة أفكاره من جديد لتكمل حديثها:

- أعرف، أعرف كل ما تريد قوله، فأنا أيضًا أرغب في المكوث لفترة أطول، لكن لنأمل أن تمر الفترة المقررة لي أولًا على خير وفي سلام يدفعني إلى السعي خلف المزيد يا قاسم.. والآن أخبرني ماذا تفعل في هذا القصر؟

- هممم، ماذا أفعل؟ سأخبرك بالطبع.. إنني... آه.

ظل قاسم يتلعثم في الحديث هكذا، وهي تنظر إليه في فضول وإصرار على بلوغ الإجابة التي تصبو إليها والتي يبدو من عينيها أنها لن ترضى بأية إجابة سوى الحقيقة، وهي الأمر الوحيد التي لا يمكنه إخباره إياها، ظل يفكر مترددًا وكله رغبة في إخبارها بما يفعل هنا لعلها تزيح بعض من الهم عن كاهله، بل وتساعده في العثور على الكثير من الإجابات على أسئلة تسكن في عقله دون حراك.. لكن حقه في الحديث لم يكن ملكه بشكل تام، بل كان ملك صاحب السيرة التي لا يرغب لها أن تنفضح قبل أوانها المتفق عليه مسبقًا.. ظل هكذا حتى قاطعته مرة أخرى لتمنحه مأوى جديدًا من الحديث لعله ينجح في استغلاله

هذه المرة.

- هل للأمر علاقة بالسيد مراد وشؤونه الخاصة؟ هل أنت محامٍ مثله؟

- اسمعيني يا سارة.. أنا أعرف قدر العلاقة التي تربطك به، ولكن ما أعرفه لا يمكن أن أنطق وأخبره لكل الناس طالما أنه لم يأذن لي بذلك، كل ما يمكنني التأكيد عليه هو أنني كاتب، كاتب فقط ولا أعرف أي شيء عن المحاماة، في الحقيقة أنا لم أكن أعرف أن السيد مراد درس الحقوق إلا عندما جئت إلى هذا القصر بطلب منه.

- بطلب منه؟ مممم على أية حال أنا أقدر أمانتك يا قاسم وأحترمها كثيرًا، لكني أفضل أن أعرف منك على أن أعرف من أي شخص آخر.

- ولماذا؟

سألها قاسم بردة فعل ساذجة لم تكن تتوقعها ليجبرها على الصمت للحظة تستجمع فيها قدر الشجاعة التي يستلزمها الموقف لتقول:

- لأنني أعتقد أنك ستصير من أقرب الناس إلي في مستقبل ليس ببعيدٍ عن المكان الذي نقف فيه الآن، كل ما عليك هو أن تتلفظ بما يدور في عقلك وألا تثقل كاهلك بما ليس لك سنيور..

- هل تعرفين كم أنا ممتنٌ لكونك تتحدثين العربية حتى ولو كنتي تخطئين في بعض الكلمات دون قصد.. لكن طريقة تذوقك لها تجعلني سعيدًا وكأنني قطعت مسافات طويلة في بضع دقائق فقط..

- لكنك لو تحدثت الإيطالية ستصبح الأمور أسهل بكثير عليّ مما تعتقد..

Page (٧) ٧٢ / ٧٧

ضحكا بصوت خفيض؛ كي لا يوقظا طاقم الخدم، وبالأحرى السيد مراد نفسه، ثم شرد قاسم وهو يقول:

- لقد سبق لي أن حاولت تعلم الفرنسية ورغم أن الدرس كان مجانيًا إلا أنني أدركت العلاقة العكسية بيني وبين اللغات.

لم تعلق سارة كثيرًا وظلا يتحدثان في الكثير من أمور الحياة التي جلبت كلًا منهما إلى رحاب ذلك القصر.. وكانت الأمور تسير بسلاسة كبيرة حتى تطوعت سارة وسألته السؤال المعتاد والذي لم كن يتوقعه لطبيعته الهادئة التي لا تمتلك هذا القدر من الفضول مثل بقية الناس:

- هل أحببت من قبل؟

باغته السؤال تمامًا وظهر عليه الارتباك الواضح.. إلا أنه لم يكن لديه ما يخفيه.. حتى هذه اللحظة، فرد سريعًا رغم ارتباكه بصدق:

- لا.. لا أظن ذلك.

- لا تظن؟ أم لم تحب من قبل؟

- لا أظن لأنني لا أعرف ما هو الحب أو متى يمكنني أن أعترف بسقوطي في حب أحدهم دون أن أرغب في النجاة منه، هل يعد اطمئناني لوجود شخص ما حبًا؟ وهل يمكنني أن أطلب منه البقاء للأبد ما إن أشعر بذلك؟ هل هو سلاسة الحديث وانسيابيته؟ هل هو رجفة القلب التي نشعر بها فور قدوم ذلك الشخص من بقعة بعيدة عن أعيننا؟ أنا حقًا لا أعرف.

- لا ليس هذا هو الحب الذي أقصده.. بل أقصد ذلك الحب الذي تظن أنه من المقدر له أن يدوم للأبد ومن ثم يترك يدك في منتصف الطريق فتشعر أنك لن تتمكن من العودة إلى ما كنت عليه من قبل.. ذلك الشعور الذي يجتاحك في غير وقته وفي غير مكانه لكنك تكون مرحبًا به لدرجة غير معقولة ومطمئنًا له حتى ولو كان مثقلًا بالعيوب..

- إن كان هذا ما تقصدين فإجابتي هي لا.. لم أقع في الحب إلا في كتاباتي ربما، وحديث الشخصيات الذي تمنيت أن أخوضه في الحقيقة لكنني لطالما كنت أجبن من ذلك.

- ماذا تقصد؟ هل رغبت في الاعتراف بحبك من قبل ولم تفعل؟

- لا لا.. انسي ما قلت فأنا لا أقصد ذلك.

جال قاسم ببصره بعيدًا عن المكان الذي تقف فيه سارة، وبدا كمن يتذكر شيئًا ما لم يتعمد نسيانه.. لكنه دفن في الذاكرة بفعل الزمن أو الظروف أو كليهما، في اللحظة ذاتها التي دخل عليهما السيد عيسى يأذن لنفسه كي يخبر السيد قاسم أن هنالك أحدًا في انتظاره، وعندما سأله في ارتياب شديد عن كينونة هذا الشخص.

فقال:

- فتاة ترتدي عباءتها السوداء ومن فوقها يشمك يخفي معالم وجهها بالكامل.

***

(٨)

- ماذا تفعلين هنا؟

خرج السؤال لا إراديًا من قاسم بعدما تعرف على أميرة التي كانت في انتظاره في لحظة واحدة، حتى إنها لم تحتج للالتفات إليه كي يتعرف على ملامحها، وكأنه يحفظ كل انحناءات جسدها وهي تقف قبالة الحائط وتنظر إلى اللوحات التي يبدو أنها تعجبها كثيرًا..

وقفت سارة خلف قاسم ببضعة أمتار لم تجعلها على مقربة من أميرة التي تقف أمامه لكنها اكتفت بالاستماع إلى ما يقولان في تأدب أو هكذا كانت تعتقد، فما كان يجول في خاطر أميرة هو عكس ذلك تمامًا.. استدارت بكامل جسدها لتنظر في هيئة قاسم التي تغيرت بشكل واضح عما كانت عليه.. رغم أنه لم يمر سوى بضعة أشهر على غيابه، وما إن تحققت منه حتى أجابته على سؤاله في تلعثم خفيف لا يؤثر على ثقتها بنفسها:

- ماذا أفعل؟ بل ماذا تفعل أنت يا قاسم أفندي؟

ثم ابتسمت في خبث بادٍ عليها.. مما جعله يجيبها بابتسامة يشوبها الحنق قليلًا..

- أميرة.. أخبرتك من قبل ألا تناديني بهذا اللقب، لا تفعلي كالغرباء، فأنا لا أعمل في الحكومة ولا أملك تلك الهيئة التي تجبرك على إلصاق اسمي بلقب ما.. أرجوك.

- حسنًا حسنًا، اهدأ.. كل ما في الأمر أن أمي قلقت عليك لذا أرسلتني كي أرى

إن كنت بخير..

قالتها أميرة بنبرة قلق حقيقية لا لوم فيها توحي بحجم المسئولية التي تربطهما ببعضها البعض، وقفت تنتظر إجابة واضحة منه حتى إن لم تعتد هذا الأمر قبلًا..

- أنا بخير.. لكن كيف عرفتِ أنني هنا من الأساس؟! وهل يعرف بقية جيراننا؟!

- وهل يهمك أمرهم؟!

- لما تتحدثين هكذا كأنني أجرمت في شيء ما؟! إن الأمر مهم جدًا بالنسبة لي يا أميرة، وأنت تعلمين أنه ليس بمنزل عادي بل قصر «مراد باشا آزاد».

- لهذا جئت! كيف تعيش في هذا المنزل وهو قصر «مراد باشا آزاد»؟ هل يمكنك أن تشرح لنا أمرًا كهذا؟

- حسنًا حسنًا.. اجلسي.

كانت سارة تراقبهما من بعيد لا تود التدخل في نقاش غريب مثل هذا إضافة إلى أنها من النظرة الأولى أدركت أن هنالك ما يميز تلك الفتاة كي تأتي إلى هنا وتحدثه بهذه اللهجة الواثقة التي تخفي شيئا آخر غير مشاعر الجيرة والاطمئنان على شخص يهمها أمره.. بل هنالك ما هو أكبر مما تظن لكن الوقت لم يكن مناسبًا للسؤال بل للرحيل فحسب..

- سأصعد لأعلى وأتحقق من رأي السيد مراد في بعض الأمور، انضم إلينا عندما تنتهي..

قالتها سارة وهي تنظر إليهما نظرة امرأة لم تستطع إخفاء مشاعر غيرة.. لكنها حاولت قدر الإمكان، حملت جانبي فستانها الممدودين وصعدت وهي تدق الأرض بحذائها دون أدنى اهتمام بما يدور في عقلهما حيال الأمر.. في اللحظة ذاتها التي حاولت أميرة أن تتأكد من وجود اليشمك على وجهها ظنًا منها أن القادم رجل وإذا بها تفاجأ بامرأة غاية في الجمال مثل سارة تحادث قاسم بتلك الطريقة الحميمية وكأنها تعرفه منذ زمن بعيد فاندهشت لوهلة من الزمن وفقدت الإحساس بالمكان والزمن وقادتها عفوية الأنثى وقربها الشديد من قاسم لتسأله في عجالة:

- هل تزوجت؟!!

- تزوجت؟

ابتسم قاسم ثم ضحك بصوت عالٍ جدًا سمعته سارة في وضوح فاضطربت ملامحها وودت لو تعود لتكتشف عمَّ يضحك قاسم بهذه الطريقة التي لم تسمعها منه من قبل.. إلا أن قاسم دون أن يندهش من سؤال أميرة خاصة وأنه يعرفها جيدًا ويعرف أنها بالتأكيد ستكون أول شخص يخبره بزواجه إن حدث من الأساس، وفي نبرة حانية تعي جيدًا الشخصية التي تتحدث عليها قال:

- بالطبع لا يا أميرة، إنها ضيفة على صاحب هذا القصر والذي يستضيفني أنا أيضًا، فلا يوجد أي علاقة تربطني بها ولا به على الإطلاق.

ولما أنت هنا إذًا؟!

- تلعثمت قليلًا حينما أدركت حدة التساؤلات التي وجهتها لقاسم في تلك

الزيارة السريعة، فقامت بإعادة السؤال مرة أخرى:

- أقصد لم هجرت دارك يا قاسم؟ فكلنا قلقون عليك وأنت تعرف أن أمرًا مثل هذا لن يخفى على أهل المدينة أبدًا.. فمنذ اليوم الذي جاءك فيه هذا الرجل ليصطحبك إلى هنا، وأنت لم تخرج من القصر منذ ذلك الحين؛ ولهذا قلقنا عليك وأرسلتني أمي كي أتقصى أخبارك.

- خير فعلت يا أميرة، لكني لا أتمكن من إخبارك بالتفاصيل، كل ما يمكنني إخبارك به هو أنني بخير وأنني سأكون سعيدًا بما سأصل إليه في الفترة القادمة، أعلم أنني مقصر، لكني سآتي لزيارتكم في أقرب وقت مناسب، فقط أمهليني بعض الوقت كي أرتب الأمور التي جدّت على حياتي في تلك الفترة، واعلمي أنني رجل لا ينسى العشرة، كل ما في الأمر أنني أخيرًا سأتمكن من بلوغ المستقبل الذي لطالما أردته بعد فترات من تحمل الهجاء وقلة الحيلة التي اعتلتني؛ كي أرد على من يعيشون حولي ويعملون إما في الحقول أو المصانع ويسخرون من طريقتي في العيش إلى جانب أوراقي وقلمي.. هل تذكرين الرواية التي تمكنت من كتابتها في العام الماضي؟! وكيف خيبت آمالي رغم أنها كانت محاولتي الأولى؟! لم أعتقد أنها ستكون جيدة أو قيمة بالنسبة لأي شخص حتى جئت هنا ووجدت الرأي الآخر الذي يقدرني ويبحث عني حتى يخبرني بهذا.. هل تذكرين؟

- أعرف أنها رواية أكثر من جيدة.

- ماذا؟!

قالها قاسم في دهشة؛ لأنه لم يتوقع تلك الإجابة أبدًا، فكل معلوماته عن أميرة

أنها صارت لا تهتم سوى بدروسها التي لا تنقطع ليلًا نهارًا، وبتعلم الفرنسية التي تعتبرها بوابتها للخروج إلى العالم، وبأمها المريضة التي تشكل لها آمال الدنيا وما فيها، أكثر من النظر في بضع أوراق لرواية كتبتها، وحتى لو حاولت وامتلكت الرغبة والوقت، كان يفكر كيف لعقلها المنشغل أن يهتم حقًا بالرسالة التي أراد أن يبلغها في كتاباته، حتى أخذ يتساءل هل كبرت أميرة لهذه الدرجة؟! لطالما رآها تلك الفتاة التي لم تتخطَّ الخامسة عشرة فحسب، وأنه ابن الجيران الذي يتكلف أمر حمايتها من بقية الأولاد ليس إلا، حتى إنه لم يشاركها اللعب كما أرادت يومًا فكان دائمًا ما يتهرب من تلك المسئولية خوفًا من أن يفقد دقيقة أراد أن يهدرها في الخروج بفكرة جديدة أو في قراءة عمل أو بحث استطاع أن يشتريهما من مصروفه الخاص.. لم يستطع مقاومة فضوله عن حقيقة رأيها فسألها:

- هل تظنين هذا حقًا؟

وكانت عيناه تلمعان رغمًا عنه، لكنه لم يستطع الاستماع إلى الإجابة؛ حيث قاطعهما صوت السيد مراد وهو يهبط الدرج مع سارة في هدوء وينادي عليه:

- قاسم، لم تعرفني على ضيفتك؟

نظر الأخير في شفقة على حالته التي كان يُرثى لها نتاج المرض الذي يبدو أنه اشتد عليه في الفترة الأخيرة وقال:

- سيدي من المفترض أن تستريح في فراشك لبضعة أيام، أظن أنك تحتاج للراحة بشدة.

- كيف تقول هذا أيها الشاب؟! ألا تراني أتحرك مثلك تمامًا؟! إنني بخير بل أريد

أن نستكمل عملنا بالشكل المعتاد.. هل يمكننا ذلك أم أنك منشغل في شيء آخر؟

- لا لا يا سيدي.. دعني أعرفك بضيفتي أو ضيفة قصرك إن صدق التعبير.. إنها أميرة صديقتي وجارتي وابنة السيدة التي لطالما كانت تعتني بي بعد رحيل أمي، وأشقاؤها هم أشقائي، لم نكن نفترق أبدًا حتى سفرتي إلى القاهرة ووفاة أبي التي دفعتني للعزلة كما أخبرتك من قبل..

- نعم أذكر.. أهلًا أميرة.

تفاجأت أميرة بعض الشيء واعتلاها الارتباك؛ كونها لم تتخيل أبدًا أن تتمكن من مقابلة السيد مراد الذي يقصّون عنه مختلف الحكايات منذ كانت طفلة، وأرادت أن تمد يدها لتبادله السلام لكنها لم تستطع لغرابة الموقف، وبدأت تتهيأ للخروج سريعًا بعدما أحكمت لف الملاءة حول خصرها إلى أعلى رأسها واعتدلت في وقفتها لتلقي على قاسم تحية الرحيل بعينيها ثم تقول:

- سامحوني لاقتحام القصر بتلك الطريقة غير اللائقة سأرحل في الحال.. كل ما أردته هو الاطمئنان على حالة قاسم لا أكثر.

ثم رحلت سريعًا، بينما مشيتها تقول الكثير، لكنها لم تنظر للخلف ولا مرة واحدة وكانت تجاهد عقلها في نسيان ما حدث للتو؛ لأنها وصلت إلى نتيجة واحدة وهي كون قاسم يحب العيش في ذلك القصر، ويبدو أن الفترة التي سيأخذها في بلوغ المستقبل الذي يريده ستطول أكثر من اللازم، الأمر الذي لن يضطرها إلى العودة إليه مرة أخرى؛ فهو لم يعد طفلًا صغيرًا وحيدًا من الآن.

في الوقت نفسه كان السيد مراد وسارة يتبادلان نظرات الحيرة بخصوص تلك

الصغيرة التي بدت عيناها تحملان الكثير من الأسرار التي لا يمكنها الإفصاح عنها فحسب.. وقال السيد مراد:

- لم أكن أظن أنك تعرف هذا النوع من الفتيات؟

- أي نوع؟

- الخجول جدًا، الذي يبدو وليد اللحظة بلا خبرات حقيقية.

ضحك قاسم بصوت مسموع وهو يجيبه قائلًا:

- هل تقصد أنها تبدو ساذجة؟! لا، أميرة ليست ساذجة يا سيدي، إنها تعرف فقط الفرق بين من يجب أن تخجل برفقته ومن يجب أن تكون بكامل واقعيتها، إنها تحسب حسابًا لكل شيء، وعقلانية إلى حد كبير. إنها لا تشبه المثال المعتاد للأنثى في مصر كلها.

- أظن أنك تمتلك الآن أكثر من مثال؟

قالها مراد باشا وهو ينظر إلى سارة في خبث واضح بعض الشيء بالنسبة لكليهما، لكن سذاجة قاسم لم تعِ غرض تلك الجملة أو المقصد الذي تسير إليه فسأله:

- ماذا تقصد يا سيدي؟

رد متداركًا الأمر:

- آه آه.. أقصد الفتيات اللاتي حضرن اجتماع الوفود بالطبع؛ فأنت الآن صرت رجلًا منفتحًا على العالمية، تعرف العديد من النساء من مختلف الجنسيات على

عكس ما تقوله.

تنهد قاسم بعدما استدرك ما يقوله رغم أنه لم يكن يشعر بذلك القدر من الفرح إزاء الأمر، فلم يكن من النوع الذي يرغب في التعرف على الفتيات فحسب، وإنما كان جل ما يريده هو العيش مع حب نقي حقيقي في مكان بسيط يتمكن فيه من ضمانة السعادة والإخلاص للأبد لا أكثر من ذلك، فلا يهمه أمر مثل مختلف الجنسيات أو العادات أو قصات الشعر والفساتين، وإنما يهمه ما هو أعمق من ذلك والذي لطالما ظن في انعدام فرصة الوصول إليه حتى جلس برفقة سارة عشرات المرات في الشهور الماضية.

لم تتفوه سارة بما يفضي عما يجول في بالها، لكن كان واضحًا أنها تتساءل عن علاقته بتلك الفتاة التي يبدو من عينيها أنها جميلة دون أدنى شك، ورغم أنها ليست في مثل جمال سارة إلا أنها شعرت ببعض من التهديد الأنثوي الذي لا يمكنها التحكم به.. لكن كانت تطبق عليه في عقلها قدر الإمكان.. وعاد مراد يسأل أسئلته المراوغة:

- هل تفكر في العودة لزيارتهم إذًا؟

- لا يا سيدي أنا أريد أن أنهي عملنا على أكمل وجه، إنني فقط أشعر بالذنب والفضل تجاههم فقد اعتنوا بي لفترات طويلة من حياتي.. ورغم أن تلك الفترات تغيرت فلا زالت الذكريات باقية.

- أتفهم ذلك تمامًا.. حسنًا دعنا نكمل أعمالنا في المكتب.. بعد إذن سنيورينا سارة بالطبع.

استفاقت سارة من تزاحم الأفكار الذي يجتم على مخيلتها في تلك الدقائق القليلة الماضية وحتى الآن لتجيبه في هدوء:

- كما ترغب يا سيدي، لا يمكنني تعطيلكما لأكثر من ذلك.. سأصعد إلى غرفتي كي أستمع إلى بعض الموسيقى، بينما يمكنكما إنهاء العمل ومناداتي إن أردتما قضاء سهرة لطيفة في المساء.. سأكون على استعداد كامل.

توجهت كي تصعد الدرج بينما تراقبها عينا قاسم لا إراديًا، وكأنه يريد أن يستشف ما يدور في عقلها في ذلك الوقت، لكنه كان يحاول امتلاك قدر من الصبر يمكنه من الانتظار حتى المساء؛ كي يتمكن من شرح أي شيء خاطئ قد فهمته من ذلك اللقاء الغريب الذي لم يكن يتوقعه من أميرة، ظن أنه المخطئ بهذا الشأن فعندما يأتي الأمر إلى أميرة يمكنك توقع أي شيء..

ذهب في النهاية خلف السيد مراد إلى غرفة المكتب كي ينكب على كتابة الفصل القادم من الرواية والتي اعتقد أن هذا ما أراد أن يفعله قبل أن يدخل المكتب ليجده يحاول العبث في بعض الأوراق التي بدا وكأنها غاية في الأهمية عندما قال:

- أريدك أن تستمع جيدًا لما سأقوله يا قاسم.. فما سيكتب في تلك الأوراق هو مصير كل ما تراه حولك هنا، وأريدك أن تقدر الأمر جيدًا.

- ماذا يحدث يا سيدي أنا لا أفهم؟

- لقد صرت الآن تعرف كل شيء عن تميمة هذا القصر، والتي حفظت لي حياة جليلة جوار الحب، والآن حان دورها كي تمنح الحظ لشخص آخر.

- اعذرني لكني لا أفهم.

- سأشرح لك كل شيء...

***

(٩)

كان سعال السيد مراد يزداد من حين لآخر.. دون أن يتطرق للحديث عنه، لكن قاسم كان يلحظه جيدًا ويحيا مع موجة التعب التي تغمر جسده من بعد كل نوبة، والتي كان يقصد تجاهلها وكأنها طريقته الخاصة في العلاج.. وظل الاثنان يجلسان قبالة بعضهما في انتظار فتح الحديث عما أراده السيد مراد والذي كان يعبث بالورق لفترة طويلة جعلت قاسم يقلق بعض الشيء من الأمر المجهول الذي ينبغي أن يتحضر لمعرفته الآن.. فضّل الصمت كي لا يثقل كاهل مضيفه الذي يبدو منشغلًا بأفكاره.

- إلى متى تظنني سأعيش يا قاسم؟

- أعطاك الله عمرًا فوق عمرك يا سيدي، لِمَ تقول ذلك؟

- أقولها لأنها حقيقة مطلقة، وفقط من يخشاها هو من لا يستحقها، وأنا أظنني أستحق أن ألتقي بمن فارقوني في نهاية المطاف، فلن أحتمل آلام الفراق إلى الأبد، ولعل الله يستجيب لندائي قريبًا لكني في جميع الأحوال سأكون راغبًا في مصير آخر غير الدنيا الخالية ممن أحب.

- أحسدك على الحب الذي ملأ قلبك.

- حقًا؟ ولِمَ لا تتمنى أن تعيش مثله فحسب؟

صمت قاسم لوهلة تعبيرًا عن عجزه عن الرد، لكنه حاول أن يفتش في أعماقه قليلًا حتى فضّل قول الصدق في النهاية:

- لأنني خائف.

- ومن ماذا تخاف؟

- من الألم الذي تحياه الآن.. من أعود أدراجي إلى أحضان الوحدة بعد أن أتذوق الونس.

- أظن أنني أفهم جيدًا ما تقول.

- لقد عشت طوال حياتي وحيد عقلي يا سيدي، ولا يعبأ الآخرون بما يدور داخلي، حتى ولو كان يخصهم بشكل أو بآخر، لطالما كانت لي حياتي الخاصة الزائفة التي تدور في مدار آخر عكس المدار المحيط بي.. وأخشى أنني لو قصصت تلك الحياة على إحداهن أن تمل منها بعدما تظن في قدرتها على المحاولة.. ثم تتركني صريع الأمل الكاذب من جديد.

- ولهذا أحضرتك إلى هنا..

أمسك السيد مراد ببعض الأوراق من المجموعة التي تقبع تحت يده نتاج البحث، وبدأ يتجهز في اختيار واحدة منهم وهو يقول لقاسم في ثقة:

- هل تحفظ قصري قبل سري؟

- نعم.

- هل تقبل أن تحيا في القصر من بعدي وتحفظ السر الذي أخفيته عن أقرب الناس إليّ؟ سر التميمة التي ستمحي أي شعور بالخوف داخلك يا قاسم..

- كيف ذلك يا سيدي؟! أنا لست سوى كاتب تقص عليه حكاياتك، هل أستحق

كل ذلك؟!

- بل القصر هو ما يستحق.. أظن أنه حان الوقت كي يحفظ قصة حب أخرى ويضمن حياة سعيدة لعشاق آخرين، بدلًا من إفشاء أمر التميمة.. فأنا لن أنسى فضل ذلك القصر مهما حييت، وعندما أموت أود أن يقدّر أحدٌ غيري تلك القيمة الفريدة له، وأن يحيا فيه هنيئًا إلى آخر عمره.

- ولكن.. لكن.

تلعثم قاسم في الكلام لبرهة قبل أن ينقذه السيد مراد من فيض تساؤلاته ويمسك بيده ليقف على حقيقة ما يدور بخلده حيث إنه توقع وجود مقابل لذلك الإرث العظيم بالطبع، ليقول له:

- على شرط واحد يا قاسم.

ورفع سبابته متابعًا:

- أن تظل مراسم استقبال الوفود الأوروبية كما هي، وأن يبقى القصر مزارًا سياحيًا عالميًا مفتوحة أبوابه للجميع، فأنا لا أرغب أن تطمس سيرته في التراب من بعدي.. هذا هو شرطي الوحيد.. إضافة إلى استكمال الرواية وإخراجها للنور.

- أها.. طبعًا يا سيدي طبعًا.. إنها سيرة ناجحة لي قبل أن تكون لك، اعذرني فقط؛ فأنا ما زلت غير واعٍ لما تقول، فلا أظن أنني سأقوى على العيش في رحاب ذلك القصر العظيم، أظنه أكبر من طموحاتي.. كما أن مهمة الزواج من فتاة أحبها.. لا أظنني الشخص المناسب لذلك.

قالها قاسم بوجه عابس يبدو عليه أمارات البؤس ليخرجه السيد مراد من

شروده:

- مهمة؟ أتدعو الحب مهمة؟ إن الحب الذي تتحدث عن مدى صعوبته هو أبسط الأشياء في الوجود.. لأنه أصدقها أيضًا.. فلا يحتاج منك سوى الاستماع إلى عينيك قبل أي شيء، عيناك ستهديانك إلى طريق المحبوب؛ لأنها سترفض النظر إلى أي كائن غيره، أما قلبك ستجده يختنق داخل قفصك الصدري عندما تراه وكأنه يريد الخروج ليتولى المهمة التي تتحدث عنها بنفسه، بينما يدعوك بالجبان إن لم تخطُ خطوة واحدة إلى الأمام.

بدا قاسم مرتبكًا بعض الشيء عندما استمع إلى كلماته.. والتي يبدو أنها تصف حالته في الفترة القصيرة الماضية، لكنه لم يقل أي شيء من شأنه أن يشعره بذلك دون أن يعي حجم ذكاء الباشا والذي لاحظ ما يحدث في حديقة قصره كل صباح.. ذلك اللقاء الذي بدأ عفويًا وصار مخططًا له بين هذين الشابين اللذين يستعدان لخوض مغامرة غير محسوبة.. مغامرة مليئة بالحب الذي أحيانًا ما يكن كافيًا لدفعك تجاه التضحية بالعالم كله للحصول على ما تريد.. وهو الأمر الذي جعل السيد مراد يتشجع ويحادث قاسم في شأن العيش في القصر والحفاظ على ما تبقى من تاريخه والاستفادة من ذلك السحر الخاص الذي سيمنحهم ما منحه إياه قديمًا.

كان يؤمن إيمانًا قاطعًا بأن تلك التميمة تستحق أن تذهب إلى شخص آخر وأن تضيء نور قلبه بالحب بعد كل شيء فلا يمكنه أن يترك الحياة هكذا دون أن يرد لها الجميل الذي صار خفيًا طيلة هذه السنوات، وكان يعلم أيضًا أن قصة الحب التي تبدأ أمامه هي ما تستحق ذلك الأمان الذي يجعلها تستمر للأبد حتى يفرقهما الموت كما فعل مع حبيبته فيروزا.

جلس قاسم يحدق في الورقة التي يبدو أنها ستغير نمط حياته بأكملها.. وفي ليلة عصيبة أصيب فيها السيد مراد بتعب شديد فأراد أن يتحضر بكتابة وصيته كما يفعل الكثيرون.. ورغم حزن قاسم على مضيفه كان يعمي عينيه عن الفرحة التي يجب أن تسكن قلبه إزاء الحياة التي تفتح ذراعيها له.. إلا أنه شعر بالاطمئنان بشكل يكفي للخلود إلى النوم في نهاية المطاف.. وكان كل ما يشغل باله هو المستقبل.. وما سيحدث إن عرفت سارة بشأن التميمة.. فقد كان يرغب في إخبارها بشدة.. لكنه فكر قليلًا حتى استوعب أنه لم يخبرها بحبه حتى، وأمرٌ كهذا يحتاج لمزيد من الشجاعة التي يبدو أنه لم يختبر قدرًا منها طيلة حياته.. لكنه أخذ قرارًا أن يجاهد ما يدور في عقله وأن يسير مع التيار الذي يدفعه نحو حياة هانئة تعوضه عن الماضي المليء بالوحدة والتساؤلات التي لم يمتلك لها إجابة يومًا.. وقد كانت سارة من النوع الذي يجعل الكلمات تتعثر في حلقك فلا تعرف طريقًا للخروج.. وإن جاهدت نفسك وحاولت فسيظهر الخوف على وجهك مثل ستار عليك أن تطلب المساعدة منها كي تتمكن من إزاحته معك، هكذا كانت وهكذا أحبها رغم كل شيء.. وقع في حب كل كلمة لا تمت للغة العربية بصلة تتفوه بها في ثقة تامة تجعله يفقد صوابه إزاء الكلمات التي يعرفها بالفعل.

***

غفا قاسم لساعاتٍ قصيرة لكنها طالت في تفاصيلها المفاجئة.. إنه ذلك الحلم مجددًا، يريد أن يختبر نهايته ولو مرةٍ واحدة لكنه لا ينتهي أبدًا، ما أن تظهر الفتاة وتمسك بيده حتى يصبح همّه الأكبر هو رؤية وجهها، لكن تلك الغاية لم تتحقق أبدًا.. يراها أمامه مُقبلةً عليه في حماسةٍ بالغة فيبادلها الشعور تلقائيًا قبل

أن تدلّه على الطريق الذي يسيرون فيه كل مرة.. وقبل أن يخطو أولى خطواته معها على الدرج العالي حتى يتوقف الزمن وتتجمد الأشياء ويخرج الحلم عن سيطرته ليستيقظ في غضب مما يُخفيه عليه عقله في كل مرة.

انقضى نهار اليوم التالي بصعوبة بالغة على عقله الذي لم يستطع التوقف عن التفكير في الأمور التي جدت عليه.. كان يرى شريط حياته وهو يتبدل تمامًا عما كان يتوقعه.. ظل ماكثًا في غرفته حتى ظنت سارة أنه يتعمد ذلك حزنًا على السيد مراد الذي ظل طريح الفراش هو الآخر في ليلة حزينة هادئة لم يكن يتمناها أيٌ منهما.. لكنها لم تعتد أن تكون بهذه السلبية والاستسلام، لذلك عندما أخبرها السيد عيسى أن قاسم لن يستطيع النزول لتناول الغداء معها لم تشعر بالحرج للصعود إليه وسؤاله عن السبب.

لملمت رداءها الطويل الذي يأخذ لون الزهور في بدايته ثم يتألق بالأبيض حتى النهاية، وصعدت الدرج خطوة تلو الأخرى على مهل.. كانت في داخلها تتمنى لو سبقها قاسم ويَسّر عليها تلك المهمة، لكن ذلك لم يحدث.

لم تمر دقيقتان منذ نزل السيد عيسى يائسًا من رفض قاسم حتى سمع طرقًا خفيفًا على الباب مرة أخرى؛ مما جعله يظن أن السيد عيسى عاد خجلًا ليخبره بشيء قد جد على حالة الباشا، سار متثاقلًا ليجيب النداء الذي استمر على استحياء واضح ليفتح الباب ويجد سارة بهيئتها التي لم تغب عن باله لحظة طيلة اليوم.. توجس سائلًا:

- هل حدث شيء؟!

- وهل يجب أن يحدث شيء كي آتي إلى هنا؟!

- لا بالطبع.. الأمر وما فيه هو أنني أشعر بالقلق إزاء حالة السيد مراد ولا يمكنني أن أدخل إليه فهو يكره ذلك؛ ولذا فإن أي طرق على الباب يشعرني بمزيد من القلق.

- أعتذر.. لم أقصد أن أصيبك بالقلق.. هل يمكنني الدخول إذًا؟

- نعم تفضلي..

- ما بك؟ تبدو قلقًا؟

- يراودني حلمٌ عنيد..

- بماذا تحلم؟

- لا أعرف.. كل ما أعرفه أنها فتاة.. شكلها؟ هيئتها؟ صوتها؟ لا أدركهم.. أسير معها إلى حيث تريد، لكني لا أشعر بالحزن حين أفعل، وإنما أكون مرتاحًا لدرجة لم أشعر بها من قبل.

- هذا حلمٌ جميل إذًا

- جميل.. لكنه عنيد للغاية.. لا تشغلي بالك معي.. سأسأل السيد عيسى إذا ما كان بإمكانه أن يحضر إليك فنجانًا من القهوة.

- لا تفعل أرجوك.. اتركه يعتني بسيده؛ فهو لم يستطع الحصول على قدر بسيط من الراحة منذ الليلة الماضية، وأنا أشفق عليه كثيرًا.. إنها المرة الأولى التي يمرض فيها السيد مراد إلى هذه الدرجة.. في سفري الماضي مرض بعض الشيء لكنه تماسك بعدها واستطاع لقاء العديد من الشخصيات الهامة وسار

الشهر بأكمله على أفضل حال.

- أعتقد أنه حزين أيضًا.

- وهل تظن أن الحزن سبب اشتداد مرضه في الآونة الأخيرة؟

- الحزن لا يُمرض، وإنما يبقى المرض يقظًا قويًا مجتاحًا لكل بقعة من البقاع التي تخطوها قدماه.. وفي حالة السيد مراد أظن أن مقاومة جسده مرتبطة تمامًا بحالته النفسية.. ولا أظن أن حالته النفسية جيدة.. وهو يعاني كل آلام الفراق هذه.

تقدمت سارة بضع خطوات وهي تفكر في كلام قاسم بروية ثم قالت بعد ثوانٍ من التفكير:

- أعتقد أنه يحبك كثيرًا يا قاسم. لم أره جالسًا مع شاب في مثل عمرك كل هذه الفترة.. وأظن أنك تستحق هذا الحب.

- هل أنت متأكدة من ذلك؟

قالها قاسم وهو يقف خلفها رغبة منه في منحها فرصة الإجابة بالشكل الذي ترغب فيه. وإشارة منه بأنه لا يراها.. رغم أنها لم تكن من نوع الفتيات الذي قد يخجل من قول ما يجول في خاطره لكن هذا ما ظنه وفقًا لخبرته البسيطة في حياته القصيرة.

- نعم أظن ذلك يا قاسم.. أنت تستحق الحب وتستحق أن تُحَب أيضًا بالصورة التي تتمناها.

بدت كلماتها كإشارة انتظرها قاسم لمدة طويلة.. ويبدو أنه لن ينطق بكلمة إلا إذا سمع وابلًا من الكلمات التي تطمئنه قبل البوح، فما البوح إلا رصاصة إن انطلقت لا يمكنك استعادتها ولا استعادة الزمن الذي احتضنها ولا ذرات الهواء التي حملتها إلى ما تصبو إليه.. وكانت لحظة التفات سارة إليه هي اللحظة التي جعلته يشعر برغبة قوية في تغيير دفة الحديث تجاه ما يدور في عقله وفي قلبه أيضًا.. وما حدّثه عنه السيد مراد في الليلة الماضية، فلا يوجد ما يجب أن يخشاه بعد الآن.. كل ما يجب عليه فعله هو إخبارها.. أن يقول أحبك.. أن يقول أريدك أن تظلي معي في بلادي الطيبة!

لكنه ما إن أوشك على فعل ذلك حتى قاطعه طرق جنوني من السيد عيسى مذعورًا!!

- أعتذر على مقاطعتكم يا سيدي لكن السيد مراد في حالة سيئة جدًا، وأنا أخشى أن أفعل أي شيء خاطئ قد يؤذيه، أرجوك أن تأتي وترى بنفسك.

لم تدع سارة مجالًا لقاسم وعيسى كي يتداركوا الموقف معًا حتى هرولت مسرعة إلى غرفة السيد مراد التي كان بابها مفتوحًا.. دلفت بعدما تبعها قاسم وعيسى يتشاركون القلق ووابل التساؤلات التي لا تجد إجابة.

- بما تشعر يا سيدي؟ أخبرني.

قالها قاسم وهو يوجه كلامه لجسد مراد باشا الراقد في سكون تام وعيناه مرتكزتان على اللوحة الموجودة على الحائط جانب فراشه الواسع المستند على أرجل نحاسية طويلة ولامعة لا تليق ببهتان وجهه تمامًا.. بينما ترقد سارة إلى جانبه جالسة على إحدى قدميها وتتدلى الثانية على الأرض خوفًا من مزاحمة

روحه المريضة في الفراش.

- أشعر بالسعادة يا قاسم.

قالها مراد لينظر كل منهما إلى بعضهما البعض في حيرة من أمرهما حتى تشجع قاسم وأخبر السيد عيسى أن ينطلق مسرعًا لإيجاد الطبيب، وبالفعل استجاب الأخير بعدما شعر بقلة الحيلة المختلطة بالحزن على الباشا وخلع رداء المطبخ سريعًا وذهب في طلب الطبيب.

- لا يوجد داعٍ للطبيب يا بني.. فأنا أشعر بالسعادة لأني أخيرًا سأرى فيروزا..

- سيدي ستكون بأفضل حال أعدك بذلك.

- لا تعد بما ليس لك يا قاسم، ولا تحاول أن تسلب مني متعتي الأخيرة في الحياة.. اتركني أستمتع بنشوة الانتظار حتى أصل فلطالما انتظرت ذلك الوصول.. ولهذا فأنا لا أخشاه أبدًا بل أريده بكل ما أمتلك من إرادة.

- أريدك أن ترتاح فحسب..

قالتها سارة تأكيدًا على كلام قاسم كي يستمع إليها مراد هذه المرة، لكنه واصل الحديث عن فيروزا في تمتمات غير واضحة وكأنه يتحدث إلى أناس آخرين؛ مما جعل الخوف يدب في قلبها ويدفعها إلى هز جسده يمينًا ويسارًا لعله يعود إلى وعيه ويواصل الحديث بشكل طبيعي. لكن محاولاتها قد باءت بالفشل فيما بدا أن جسد السيد مراد قد استسلم تمامًا لمن يحادثهم.. ظلت تحركه حركات بسيطة لا فائدة منها إلى أن سكن سكونًا تامًا جعل الدموع تتألق في عيني سارة وقاسم الذي استقبلها بين ذراعيه في حركة لا إرادية وراح يتفحص

وجهها في حنو ينم عن تماسكه وإدراكه للأمر الذي كان واضحًا في الليالي الماضية.. ووجد نفسه يقول مصبرًا روحه على فراق السيد مراد:

- على الأقل سيرى حبيبته يا سارة كما أراد تمامًا..

- سأفتقده كثيرًا كثيرًا...

أجابته وهي تجاهد نفسها للحديث خاصة في اللحظة التي وصل فيها الطبيب على باب الغرفة لينضم إليهم في حزنهم الشديد ولا ينجح في إضافة شيء مما كان يرجونه.. فيودع صديقه النائم ويخرج بهم إلى الدرج في استسلام لأمر الروح التي صعدت إلى خالقها..

***

(١٠)

ظل قاسم يتأمل هيبة الكنيسة من حوله، تلك هي المرة الأولى التي يدلف فيها إلى كنيسة البلدة، رغم أنه لطالما أراد أن يستجيب لفضوله ويتفحص شكلها من الداخل، ويرى جمال معمارها الذي يسمع عنه دومًا. ظل يلتف في محاولة بلوغ كل ركن من أركانها بعينيه حتى وقعت أنظاره على سارة التي لم تستطع السفر لما حدث، كانت تمكث في الصف الأول من الجزء المجاور له في الكنيسة ذاتها والذي يضم العديد من السيدات على عكس الناحية التي يجلس بها.. طمأنته ببعض النظرات العابرة.

اعتدل في جلسته مرة أخرى وراح يستمع إلى حديث الرجل الذي يتحدث في سيرة السيد مراد الطيبة.. بينما يرقد الأخير في قبره المزين إلى جوارهم.

كانت الكنيسة تمتلئ بالكثير من الغرباء أو ربما أقرباء لا يعرفهم قاسم بالطبع، ولسبب كهذا شعر بالخوف بعض الشيء؛ لأن احتمالية أن يتساءلوا عن الميراث هي احتمالية كبيرة بالطبع، خاصة إن علموا بشأن القصر والتميمة وما يخفيه ذلك الصرح العظيم لمن يعيش تحت قبته.. لكنه حاول قدر الإمكان أن يزيل مثل هذه الأفكار من عقله وأن يركز على وداع السيد الذي ظهر في حياته لتغيرها تمامًا... جل ما تمناه هو أن يبقى السيد مراد إلى جواره ولا يرحل؛ لأنه كان الحامي الوحيد لمشواره ولحياته التي لا يمتلك تعريفًا لها في الوقت الحالي.

- بما تفكر؟

أخرجه من شروده صوت سارة وسط الجمع الكبير الذي لا يأبه لوجوده، وربما لا يرحب به أيضًا.

- أفكر فيما هو قادم.

- وهل وصلت لنتيجة؟

- نعم، ربما أن هذا ليس المكان أو الوقت المناسب، لكني متأكد أن مراد باشا كان سيسعد كثيرًا لسماع ما أقول.. سارة أنا أحبك.. هل؟ هل تقبلين الزواج بي؟

***

- لا اعلم ربما سأفكر في ذلك يومًا ما..

- أنا متأكدة أنك ستصبح كاتبًا عظيمًا أولًا، أما أنا؟ سأصبح معلمة لا مثيل لها وربما أفكر في الزواج بعد ذلك..

قالتها أميرة بدلال فتاة في السادسة عشر من عمرها وقبل أن تشيح بنظرها إلى الناحية الأخرى.. باغتها قاسم بالسؤال: وإن تزوجتي يا أميرة؟ أخبريني عن الرجل الذي توافقين على العيش معه؟

أطالت النظر إليه قبل أن يبتسم كلاهما في لحظة عابرة وقالت:

- أتصدقني لو قلت لك أنني لا أعلم؟

- أمرك غريب.. ظننته شيئًا تعرفه الفتاة منذ عامها الأول..

اتسعت ابتسامتها أكثر ثم أجابت:

- الشيء الوحيد الذي أعرفه هو أن يكون في نفس طموحك وإيمانك بما تحلم بالوصول إليه.

- أخبرك سرًا؟

- ماذا؟

- أنا أيضًا أريد فتاة في نفس طموحك ورغبتك في عيش الحياة على طريقتك.

تحولت الابتسامة على وجه أميرة إلى فضولٍ ممزوجٍ بخجل، واعتدلت في جلستها تسأله:

- أظن أننا لن نفعل ما تفكر فيه يا قاسم..

نظر طويلًا في عينيها قبل أن يقول:

- ولما لا؟ إني أشعر أحيانًا أننا اتفقنا على تلك الحقيقة من دون أن نتحدث بشأنها حتى.. كيف ومتى حدث هذا؟

- حدث هذا عندما كنت لي عونًا في كل خطوة أخطوها في حياتي، وكنت لك أول من يستمع ويدعم ويتمنى المزيد والمزيد من النجاح.. حدث عندما دافعت عني وتلقيت العقاب بدلًا مني مرارًا وتكرارًا، حدث عندما دلفت بيننا صغيرًا وتناولت من طعامنا وغفوت على أريكتنا.. حدث عندما انتظرتك لتعود من قاهرة المعز لتخبرني بتحقق أول خطوة في مشوار أحلامك، حدث عندما تعلقت بك وتعلقت أنت بي، حتى صرنا نخشى خسارة بعضنا البعض أكثر من شيء آخر..

استدار قاسم بجسده استدارة كاملة ناحيتها وقلبه يخفق بما لا يستطيع أن يقول:

- أميرة؟ إن ما تقولينه هو سبب زواج الناس من بعضهم البعض وليس العكس..

- أنت تعلم أنهم إن طمعوا في المزيد ربما يصلون إلى الفراق من أقرب بوابة له..

أومأ برأسه موافقًا: نعم.. إن هذا هو أكبر مخاوفي.

- فلنجعل الاتفاق حقيقيًا إذًا يا قاسم.. أنت أعز شخص على قلبي.. وكفى.

- نعم.. يكفيني هذا.. يكفيني وبشدة.

***

شرد قاسم لبضع ثوانٍ وهو يتذكر المرة الوحيدة التي تحدث فيها عن الزواج لفتاة أخرى، ورغم أن صورة الفتاة التي أراد أن يتزوجها ظلت مبهمة أمامه لعشرات السنين إلا أنها الآن تتألق بوجه سارة من دون أدنى شك.

- كما سمعتِ.. هل تقبلين الزواج بي؟

- ظننت أنك لن تقولها أبدًا..

- ولِمَ هذا؟ هل أبدو أحمق إلى هذه الدرجة؟

- نعم، أحمق وتحتاج لعلاج.

- عالجيني إذًا يا سارة، أعدك أنني لن أماطل أبدًا في تلقي العلاج.

أجابته بابتسامة ساحرة.. كانت كافية تمامًا على كل تساؤلاته؛ إذ بدا أنها تبادله ما هو أكثر من الحب فاطمأن قلبه.. لكن ما زال يشغل باله أمر التميمة التي يجب

أن يخبرها به، سواء شاء ذلك أم لا، فهو لن يفعل مثلما فعل مراد باشا ويعيش هكذا معها دون أن تعلم، كانت تلك هي قناعته التي أقسم بينه وبين نفسه على أنها لن تتغير مهما حدث.

انتهت مراسم وداع جسد السيد مراد، وبعد يومين فقط من سفر سارة لإخبار والدها والاطمئنان على ما تركته في بلدها، جلس قاسم مع رجل يرتدي بذلة بنية وعلى وجهه فراسة وجدية تمنعك من مبادرته بالحديث مهما حاولت ذلك.. مرت دقائق حتى انتظر انتهاءه من عمله.. حتى علم منه أنه كان محاميًا زميلًا للسيد مراد في دراسته للحقوق بالخارج، وأن مجيئه إلى هنا له علاقة بأمور الوصية والميراث الذي يعلم قاسم تمام العلم أنه جزء لا يتجزأ منه، وما إن لملم السيد المدعو «نجيب» آخر ما تبقى من أوراقه، حتى أخبر قاسم أن شرط حصوله على القصر كمكان للعيش فيه دون مغادرته أبدًا هو الانتهاء من كتابة الرواية إذا ما فارق السيد مراد الحياة.. وقد كانت تلك هي نية قاسم بالفعل دون أن يحتاج ذلك المحامي إلى تجديدها؛ لأن قصة «مراد آزاد» وفيروزا قد وجدت مكانتها بين ضلوعه، وكان أول من يرغب في قراءتها على الورق بعد الانتهاء منها بالشكل المناسب؛ ولذلك وعد المحامي أنه سينتهي من الرواية بالفعل تمامًا كما أراد السيد مراد.. وأنه سيقوم بنشرها على الشكل الذي أراده أيضًا، وسيفهم جميع الناس أن القصة الملحمية هي سبب وجود تلك التحفة المعمارية التي تتزين بها شوارع المدينة.. وما إن اطمأن السيد «نجيب» لنية قاسم على إكمال اتفاقه مع الراحل، حتى استعد للمغادرة مطمئنًا قاسم بدوره أنه لم يتعرض إليه أي شخص آخر من الورثة؛ لأنهم حصلوا على ما هو أفضل من هذا القصر.. حيث إن السيد مراد يملك العديد من الأراضي والأملاك على حد قوله، وإن مكوثه في القصر صار مسالة مقبولة من قبل كل من يعرفون ذلك، وانتهى الحديث بينهما

إلى هذا الحد.

- لا أريد زيارات من أحد يا سيد عيسى أرجوك.

قالها قاسم وهو يضغط على الأحرف، موضحًا رغبته في الانعزال لفترة..

- نعم يا سيدي كما ترغب تمامًا، ولكن هل ستمكث في غرفة المكتب؟

- لا سأمكث في القبو.

- القبو!

بدأ قاسم يتردد على القبو في الأسبوع الذي تلا وفاة مراد باشا عازمًا على الانتهاء من الرواية بالشكل الذي يليق بها، وفي هدوء تام بعيدًا عن أي من المشتتات الخارجية، فقد كان الأمر بالنسبة له يمثل تحديًا خاصًا لحياته الأدبية، ولوفائه بالعهد لذلك الرجل الذي جاء ليغير حياته تمامًا كما أراد.

لأيام وأسابيع كان صوت الآلة الكاتبة هو صديقه الوحيد، يخرج ليأكل ويشرب ويغير ملابسه ثم يعود مرة أخرى لعزلته ووحدته والرواية التي تمكنت من ابتلاع أفكاره ولفظها على ساعات متفرقة؛ كي يتمكن من كتابة ما أراد على مهل، وبتعبيراته الخاصة عن الحب صار خياله هو المحرك الرئيسي لما يكتب، فرغم أن الأحداث حقيقية إلا أنه لم يرها، فقد حكيت له فحسب.. ولهذا كان يحاول أن يضع نفسه مكان البطل «مراد آزاد» كي يتخيل قدر حبه الذي حمله في قلبه لتلك الجميلة التي كانت صورها تغرق المكان.. حتى على حائط القبو الذي لا يراه أحد.

كتب قسمًا خاصًا عما تعنيه الحياة في القصر، وكيف كان كل شيء فيه يوحي بالحب والأمان، وباحتضان قصة مثل التي نسمع عنها في الروايات القديمة

وأساطير السابقين، ظل يكتب ويكتب حتى صار مهووسًا بالفكرة، وكانت تمر عليه أيام يلقي فيها بالأوراق على الأرض ويصرخ كالمجنون راغبًا في عيش ما يكتبه، فمجرد تخيل العيش مع شخص أنت تعلم أنك لن تفارقه أبدًا كانت تصيبه بربكة شديدة لا يستطع إخفاءها، وكان يزيد تمنيه ليلة تلو الأخرى، فقد كان يتخيل حياته مع سارة في رحاب القصر، والتي لن ترسم لها نهاية سوى الموت، مما جعله يعد الثواني حتى تعود إليه ويخبرها بخطته كاملة، كما يكتبها تمامًا أراد أن يعيش كل لحظة من حياة الباشا خاصة أنها صارت هديته التي لا يخجل من الاستمتاع بها أبدًا.. وفي يوم قاطع عزلته السيد عيسى قائلًا:

- اعذرني يا سيدي هنالك من يريدك بالخارج؟

- من؟

- يقول: إنه صديق قديم للسيد مراد لكني لم أره من قبل..

- حسنًا يمكنك الانصراف وعمل فنجان من القهوة، وكوب من الشاي بالنعناع لأجلي لو سمحت، سآتي في الحال.

انصرف السيد عيسى بعدما بدا قاسم في لملمة شتات نفسه والخروج من الحالة التي تلبسته منذ شرع في الكتابة، وبدأ في ترتيب الأوراق التي نظر إليها في سعادة عارمة؛ كونها قد أوشكت على الانتهاء.. وانطلق في هدوء بالغ رغم أن كل ما بداخله يدعوه للعودة.

- أخبرني السيد عيسى أنك صديق للسيد مراد..

قالها قاسم وهو يصافح الرجل الماكث أمامه في احترام وينتظر منه الجلوس

كي يشرع في الحديث على مهل، خاصة أن هيئته أشارت إلى كونه رجلًا يبدو في الستين من عمره، رغم أن ملامحه لم تصب بالعجز بعد لكن تكوين جسده كان واضحًا.

- أنا «بليغ».. أعرف السيد مراد منذ اليوم الذي جاء فيه إلى إيطاليا شابًا يافعًا يسعى للدراسة.. لكني لم أتمكن من حضور جنازته؛ ولذا أردت أن آتي عندما علمت أن هنالك من يسكن القصر، وأنك صديق للسيد مراد.

- آه، نعم، صديق كما تعلم.

- لكن ألست صغيرًا بعض الشيء على هذا اللقب، فالسيد مراد لم يصادق سوى العجائز أمثالي.

ضحك قاسم وهو يحاول تدارك الموقف قائلًا:

- بالطبع لست صديقًا مقربًا، لكني عشت معه آخر أيامه.. وكنت أرعى بعض من أموره الخاصة.

- حسنًا، طالما أنك تعرفه فهذا يكفي بالنسبة إليّ على كل حال.. اعذر وقاحتي وكثرة أسئلتي رغم أنني أريد تعزيتك في نهاية المطاف، فالسيد مراد كان رجلًا يدخل قلب كل من يتعرف عليه، وأراهن على أنك حزين للغاية لفقدانه.

- نعم، عندك كل الحق وأشكرك كثيرًا على مجيئك.. هل جئت من إيطاليا لتوك؟

- لا فقد جئت من إيطاليا منذ أسبوع مضى، لكني لم أكن أعرف بوجودك هنا إلا عندما أخبرني صديق لي كان يأتي أحد اجتماعات المثقفين التي يقوم

بتنظيمها السيد مراد.

- آه حضرت واحدًا منها وقد كان في غاية الإمتاع حقًا.

- هل فعلت؟ أنت لا تعلم كم يشعرني ذلك بالسعادة، فإن أردت الحقيقة إن سبب زيارتي لك بالطبع هو أداء واجب العزاء، لكن السبب الآخر هو أنني أردت أن أعلم إن كانت أمور الاجتماعات ستزال قائمة؛ لأنني متأكد أن أمرًا كهذا سيسعد السيد مراد في رقدته الأخيرة كثيرًا، لطالما أراد أن يظل هذا القصر معلمًا سياحيًا.. كما أنني أعرف الكثيرين ممن يريدون زيارته من إيطاليا ومن بلاد أخرى أيضًا، لكن خبر وفاة السيد جعلهم يتراجعون عن ذلك.

- لا على العكس تمامًا.. بما أنك هنا يا سيدي اسمح لي أن أطلب مساعدتك في تحقيق رغبة السيد مراد في استمرار إقامة تلك الاجتماعات على مهل، حتى يصبح الأمر كما كان تمامًا.. ورغم أنني لست أهلًا لذلك إلا أني سأسعد كثيرًا باستضافة عامة المثقفين والطلاب والأدباء والفنانين.. لطالما كانت تلك هي رغبتي وحلمي.

- أنت شاب رائع يا بني..

- شكرًا لكرمك..

- لقد تشرفت بك كثيرًا يا سيد قاسم، أنا في غاية السعادة أنك ترحب بما قلته لك، وأعدك أنني سأقوم بترتيب كل شيء، كل ما عليك هو أن تخبرني بالوقت المناسب لاستقبال أي وفد من الوفود القادمة وسأخبرهم أنا.. وسأساعدك أيضًا في إدارة اليوم، كما كان يفعل السيد مراد تمامًا.

- حسنًا.. سأنتهي من مشروع أعمل عليه يا سيد بليغ وأريدك فقط أن تترك لي عنوان أو طريقة أستطيع التواصل بها معك كي نبدأ في التخطيط للمسالة برمتها.. وأشكر مجهودك الكريم على ذلك.

نظر قاسم إلى الساعة بعد رحيل السيد بليغ الذي جاء ليساعده في تنفيذ أمر لم يكن ليفعله وحده حتى لو أراد، ليجدها تشير إلى الواحدة ظهرًا.. أدرك أنه لم يخلد إلى النوم منذ فترة طويلة.. لكنه لا يأبه بأي شيء.. إنما ابتسم ابتسامة واسعة لقدرته على فعل ذلك، فالرواية في فصلها الأخير ويبدو أنها ترضيه إلى حد لم يكن يتوقعه أبدًا..

صعد إلى الأعلى كي يتجهز لتناول الغداء بعدما فوت وجبة الإفطار، وخيّب آمال السيد عيسى، وما إن نزل حتى وجد سارة قد وصلت إلى القصر وتبدو كملكة تنتظر التنصيب على العرش للتو.

سألها بلهفة شديدة:

- متى وصلتِ؟

- وصلت للتو يا قاسم، هل اشتقت إلي؟!

قالتها سارة بالإيطالية فلم يفهم قاسم ما تقصد بالضبط، لكن انفرجت أساريره كردة فعل إيجابية على وصولها كان يشغل باله أمر إخبارها بكل شيء، وعزم على فعل ذلك عندما ينتهي من كتابة الرواية؛ حتى تكون أول من يقرأها وتخبره برأيها في الخيال وفي الحقيقة؛ إذ إنها سأكون شريكته في كل شيء وفي المشوار الذي ربما يتسم بالجنون، لكنه ومن دون أدنى شك كان يتسم

بالرومانسية كذلك في نظره.

- حسنًا، سأتحدث بالعربية.. أقول: إنني اشتقت إليك، اشتقت لحيرتك ولقلبك الذي يحاول إخفاء دقاته في كل مرة يراني، اشتقت لمناداتك باسمي سارة على الطريقة المصرية التي لا تشبه اسمي لا من قريب ولا من بعيد، لكنها صارت طريقتي المفضلة لو تعلم.

- إذًا كنت تفكرين بي كما فعلت أنا؟!

- نعم كنت أفكر وأفكر وأفكر.

- وإلى أي مدى وصلتِ؟

- وصلت إلى أنك ستكون بطل روايتي أيها السيد وإنني من الآن فصاعدًا سأكون جمهورك الوحيد حتى يتبين لك جمهور آخر، فهل توافق؟

أراد قاسم أن يجيبها بالإيجاب دون تردد لكنه أخذ يفكر لجزء من الثانية في ردة فعلها حين تعلم سر القصر والحياة الحالمة التي تنتظرهما.. مما جعله يقرر أن يتنازل عن شرط الانتهاء من الرواية وإخبارها.

- عِندي سر يجب أن تعلميه يا سارة..

- أي سر؟

***

(١١)

- وهل تظن أن الحب يحتاج لكل هذا العناء كي يعيش؟

قالتها سارة بعدما شعر قاسم بقسمات وجهها تتحول إلى الصدمة مما قاله لها عن التميمة وعن السحر الذي قد يضمن لهما حياة سعيدة لم يحلما بها من قبل، لكن الأمور آلت لما لم يتوقعه تمامًا.

بدأ الأمر بكلام لم يظن أنه سيقوله لفتاة قبلها، وكانت الأمور تسير بشكل مبشر إلى حد كبير وكان تجاوب سارة في الحديث العاطفي الذي كان يصيبه بالتعرق سلسًا وميسوزًا.. مما جعله يتشجع ويقرر أن يُكمل ما بدأه.. نظر في عينيها لدقائق لم يشعر بها أيٌ منهما، وأمسك ما تيسر له من يدها ليقربها منه في هدوء لعلها تستمع إلى ما ستتفوه به شفتاه المرتعشتان، وما إن اقتربت منه حتى قال لها كما استمع إليها في عقله تمامًا.

- هل ستتزوجينني يا سارة؟

- نعم وأرجوك لا تجعلني أضطر لقولها مرة أخرى.

ضحكت سارة حينها في أنوثة طغت على أي شيء آخر يجري في الأجواء مما دب شعور الخوف في قلب قاسم الذي توقع رفضها لما قاله للتو، وشعر أن ضحكاتها هي بمثابة سخرية واضحة على ما يقول.. لأن الأمر لم يكن كما يظن بل استعادت الجميلة الإيطالية طبيعتها في لحظة لمعت فيها عيناها وأرادت أن تفسر ما فعلته بإمساكها لإحدى ذراعيه في حنو شديد.. وتحولت ملامح وجهها إلى الجدية لتجيبه قائلة:

- لا تقلق، سأقولها مرات ومرات إن استدعى الأمر، وما أضحكني هو أنني كنت في رهان دائم مع نفسي على أنك ربما لن تقولها ثانية، وستضطرني أنا للتفكير في المسألة عندما أعود لكنك جعلتني أخسر الرهان.. ويا لجمال تلك الخسارة لو تعلم.

- هل يعني ذلك أنك تريدين العيش معي؟

- نعم أريد.. أريد أن أسهر على كلماتك التي لن يقرأها غيري، وأن أنتظر سماع رأيك في أي مقطوعة أتمكن من عزفها بعد عناء طويل، أريدك أن تكون جمهوري الأول يا قاسم وأنا كذلك.. هل يناسبك هذا؟

- لا يوجد شيء في هذا العالم يناسبني أكثر من هذا.

ابتسمت ابتسامة تعكس وعدًا بسعادة طويلة.. الحياة التي أرادها قاسم وظل يحلم بها حتى هذه اللحظة.. لكنه لم يكن يعلم أنها ستكون بتلك الحلاوة، ولم يكن على استعداد لاختبار سيل المشاعر الجارف الذي يقود صاحبه إلى شيء غير معلوم.. لكنه يبدو مرغوبًا في كل الأحوال.. وما إن عاش كل منهما رحلة أمنيات خاصة به لم يفصح للآخر عنها بعد، حتى اعتدل قاسم في جلسته وقرر الإفصاح عن السر الذي أثقل كاهله في الشهور الماضية، سر القصر الذي صار يملكه بين يوم وليلة.. بل ويملك العيش في رحاب سحره الخاص الذي سيعطيه كل ما تمنى من الدنيا..

- سارة.. هنالك شيء يجب أن أخبرك به.. هنالك أمر غاية في الجمال والروعة يمكنه أن يحرس حياتنا إلى الأبد، ويمكنه أن يحرس الحب في أقفاص قلوبنا مهما حدث.

- ماذا تقصد؟ ما الذي سيحرس الحب غيرنا يا قاسم؟

- هل تظنين أن رغبة الشخص في البقاء إلى جانب حبيبه كافية إلى الحد الذي لا حد له؟

- لا أظن ذلك.. لكن حينها سيظهر ما يسمى بالقدر ليقول كلمته التي يجب أن يستمع إليها الحبيبان.

غرق قاسم في موجة من القلق التي جعلته يتوتر بعدما ظن أنه تخلص من الجزء الأصعب من الحديث إلا أن كلمات سارة قد أربكته كثيرًا! الأمر الذي جعله يحاول انتقاء الأخبار الجيدة أولًا؛ كي لا يثير حفيظتها في اللحظة ذاتها وقال لها في هدوء بالغ:

- ألا تظنين أن استطاعتنا العيش في هذا القصر أمر جيد؟

- ماذا؟! العيش في القصر؟! بالطبع هو أمر جيد، بل أمر بالغ الروعة.

قالتها في دهشة كبيرة تتخللها السعادة؛ مما جعله يبتلع ريقه في محاولة لاستكمال ما بدأه:

- نعم يا سارة، فقد كانت تلك هي مكافأة السيد مراد لما أفعله من أجله.. سأكون الكاتب الذي استطاع تخليد ذكريات هذا الرجل في عمل روائي تراثي ناجح وسيجعلني أمتلك حق العيش في قصر بمثل هذا الجمال.

- يا إلهي.. لطالما أردت العيش في رحاب هذه التحفة المعمارية لكنني لم أتوقع أبدًا أن أتمكن من فعل ذلك عن طريقك وعن طريق السيد مراد نفسه! أخبرني

كيف حدث كل ذلك؟

- أنا مثلك تمامًا، كنت متفاجئًا إلى حد كبير، لكنه كان واثقًا مما يريد وأخبرني أن كل ما أكتبه من أجله سيكون هدية أعظم مما أظن من القصر بأكمله الذي يزول بزوال الروح، لكن قصة حبه ستتخلد ولن تزول أبدًا طالما أن هنالك من يقوم بقراءتها، ورغم أن وجهة نظره أسعدتني كثيرًا إلا أنني شعرت بحجم المسئولية على عاتقي، وأن تلك الرواية يجب أن تخرج بالشكل الذي أراده تمامًا؛ لأنني إن خذلته فسأشعر أنني لا أستحق العيش بهذا المكان! لكن ليس هذا ما أردت إخبارك به هنالك ما هو أفضل وأفضل مما تظنين هنالك سر يا سارة، سر تمكن من إعانة مراد وفيروزا على العيش مع بعضهما البعض طيلة هذه السنوات حتى فرّقهما الموت لا غيره.

- سر؟ أي سر هذا؟

ظل قاسم يصف لها في شغف يجعل من يراه يظنه مهووسًا بعض الشيء.. لكن سارة لم تعطِه أي رد فعل لما يقول إلى أن انتهى، أخبرها عن سر التميمة بالكامل وعن قصة الحب التي لم تكن لتعيش إلا ببناء هذا القصر وعن المهندس الإيطالي الذي لجأ إليه السيد مراد كي يتم كل شيء، وكيف أنه ظل كل هذه السنوات مدينًا إلى تلك التميمة التي جعلته قريبًا من القلب الوحيد الذي أراد أن يعيش بقربه.. حكى لها كيف أنه كان يحلم بامتلاك تلك التميمة وأن حلمه تحقق في الليلة التي استدعاه فيها السيد مراد لإخباره بشأن ملكية القصر، وأن شرطه الوحيد هو استمرار استقبال الوفود من كل بلاد العالم كما كان يحدث في حياته.. كي يظل القصر له نفس السيرة التي بذل كل جهده للوصول إليها في يوم من الأيام.

وبعدما انتهى قاسم من حديثه كانت دقات قلبه تتسارع من شدة رغبته في مشاركة سارة الحكاية من البداية، استقبلت سارة الأمر بهدوء تام، لكنه لم يكن يعلم أنه هدوء ما قبل العاصفة!

- هل تظن أن الحب يحتاج إلى كل هذا العناء؟

كان وقع السؤال على قاسم قويًا إلى درجة جعلته عاجزًا عن الرد للحظات.. استدارت فيها سارة إلى الناحية الأخرى تتحرك برأسها لتلقي نظرة سريعة على القصر وهي تقول:

- هل تظن أن تلك الجدران المصمتة لها الحق في تقرير مصير من يحيا في حمايتها؟ هل تظن ذلك يا قاسم.. أنا لا أصدق ما تقول ولا أظن أن السيدة فيروزا لو كانت على علم بما تقول ما وافقت هي أيضًا.. من حق كل إنسان أن يختار إلى أين تسير مشاعره، وإن اختفت فمن حقه أن يختار الرحيل أيضًا.

- أفهم من ذلك أنك لا تحبينني إلى الدرجة التي تجعلك واثقة من عدم الرحيل؟ هل سيأتي اليوم الذي أعود فيه وحيدًا من جديد؟!

- إن قلت لك إنني واثقة فسأكون مجرد فتاة مخادعة ترغب في العيش معك فحسب.. لكن كل ما أعلمه أنني سأبذل كل ما أستطيع، سأبذل روحي في سبيل إنجاح حبنا والبقاء إلى جانب بعضنا البعض إلى الأبد.

- وما ضيرك أن نعيش الأبد ونحن على علم بنهايته؟! لماذا ترغبين في خوض تجربة يا سارة بينما تقدم لنا الحياة ما هو أكثر بكثير؟!

- لأنني لست بمغفلة ترغب في العيش في قصر كبير يمتلك المزايا التي

تتمناها أي بنت، بل أرغب في العيش معك في أي مكان طالما أنه يمكننا تحويله إلى قصر بالحب الذي ينمو به يومًا بعد يوم!

- لكنك قلتِ لتوك إنك لطالما أردت العيش في القصر!

- نعم.. قبل أن أعلم بحقيقة وجود سحر ما يجبرني على العيش بلا إرادة مني.

- إذًا فلتربدي ذلك.. فلترغبي بي وأعدك أنني لن أخذلك أبدًا.

قالها قاسم وهو يضم يدي سارة بين كفيه ويقترب منها في هدوء لعلها تستجيب له ولرغبته التي أصبحت تسيطر على روحه بأكملها.. لكن ما كان منها سوى أن سحبت يديها بهدوء من بين يديه وهي تتحداه قائلة:

- ماذا تقول يا قاسم إن أخبرتك بعدم رغبتي في استغلال تميمة ما للعيش فوقها خوفًا من الفراق؟!

اشتعل غضب قاسم فرد بحدة:

- سأقول إنك ربما لا تحبينني بالقدر الكافي يا سارة.

***

(١٢)

رحلت سارة.. وعاد قاسم إلى وحدته.. مرت الأيام التالية قاسية كئيبة.. حاول قاسم أن يهرب من وجع فراقها بإكمال الكتابة.. والبقاء في القصر، لكنه كان يهرب كل ليلة من ذكراها، ومن رائحة عطرها وهيئتها التي افتقدها أكثر مما كان يظن عندما افترقا في تلك الليلة الكئيبة. واستيقظ ذات يوم بعد ليلة عصيبة من الكآبة والحزن.. كان يوم له رائحة متربة.. امتزج فيه الهواء بالغبار.. حاول النهوض من فراشه، ثم انتابه هاجس بالوحدة الشديدة، نداء ما، رغبة غريبة اجتاحت روحه الحائرة، كان بحاجة لفعل شيء ما بخصوص سارة، يشعر أنه بحاجة إليها لكن الخطوة كانت ثقيلة عليه جدًا، أثقل مما يظن، جلس يفكر لساعات لم يشعر بمرورها أبدًا، أخذ يتساءل كيف يمكنه أن يستعيد شيئًا قد اقترب منه، حتى إنه لم تتسنَّ له الفرصة الكاملة لامتلاكه بعد، كان إعجابه بسارة يتزايد يومًا بعد يوم منذ اللحظة التي رآها فيها.. وحينما أدرك أنه يحبها لم يظن أن الأمر سيغدو بتلك الصعوبة، فهي تبادله ذلك الحب! وعندما تذكر ما قاله لها ظن أنه ربما تمادى كثيرًا وأن رغبته الشديدة في استغلال التميمة قد أعمت عينيه عن القلب الذي يستحق العناء لأجله..

نهض مسرعًا بعد دوامات من التفكير وجلب أقرب ورقة وأخرج ريشته ليسطّر الكلمات التي تدور في عقله كلها، وجلس يكتب إليها: عن مرارة الأسابيع الماضية وعن أحلامه السيئة التي تدفعه إلى الحديث إليها لعلها تذيب كل شيء يعانيه:

«حبيبتي سارة،

أنت الوحيدة التي ناديتها بتلك الكلمة، إن ما نفعله خطأ كبير، في حقنا وفي

حق الحب الذي وُلد من النظرة الأولى، تعرفين وأعرف أن أول نظرة جمعتنا كانت إشارة لعمر طويل من العشق، كيف لنا أن نختزله في بضع كلمات وألم! إنني أرجوك أن تنصتي إليّ هذه المرة وأن تدركي أحلامي التي طالما بدت ساذجة إلى جميع من حولي، أرجوك لا تكوني مثل الآخرين، لا تنضمي إلى صفوف من يشعرون بالغرابة مما أفعل، من يستنكرون تصرفاتي ورغباتي وينتقدون أفكاري وحياتي.. كوني لي بر الأمان الذي لم أصل إليه مرة واحدة، إنني أسبح منذ زمن.. ولا أظن أن الشعور الذي جمعنا يستحق أن نطوي صفحته، لست طامعًا في شيء.. وإنما أريد أن آخذ من الحياة ما منحتني إياه بالفعل. أريد أن أستجيب لها ولو لمرة واحدة.. أن أعيش وأجرب وأغامر لعل القدر يبتسم لي ويعينني على ما أعجز عنه، سارة.. كوني لي العون فأنا لا أستطيع أن أعين نفسي، كوني لي الملاذ فأنا لا أستطيع أن أعانق نفسي. هلا تأتين؟!».

انتهى قاسم من المصارحة بما يجتاحه تلك الفترة، ثم كلف السيد عيسى بإيداع الرسالة في البريد الذي سيأخذ أيامًا ولياليَ حتى يصل إلى إيطاليا.... ورغم أن صبره كان قد نَفِدَ إلا أنه عرف بين وبين نفسه أن ما يفعله هو الصواب بعينه، وأنه لن يتركها تضيع منه بهذه السهولة.

مرت فترة قصيرة بعض الشيء، طويلة جدًا على قلب قاسم، قضاها بين القبو وبين الحديقة وبين الأوراق التي شكلت ملاذه الوحيد.. حتى جاء اليوم الذي هرول إليه السيد عيسى يزف إليه خبر اتصال سارة به، وأنه عليه أن يحضر لأنها تنتظره على الهاتف في تلك اللحظة.

استجاب قاسم سريعًا وخرج يلبي النداء الذي تأخر كثيرًا من وجهة نظره، وأمسك بسماعة الهاتف الذهبي حتى استقرت على شفتيه ليقول:

- لِمَ كل هذا الغياب؟!

- أنا لم أغب بعد.

- اسمعيني يا سارة، أريد الحديث معك وكأن شيئًا لم يكن، أريد أن أثبت لك وفائي الذي لم تتسنَّ لك الفرصة كي تعرفيه جيدًا.

- لا يمكنني العودة يا قاسم، صار أبي يعلم بالأمر على أية حال.

- سآتي إليك إذًا!

قالها في عقله ولم ينبس بها، ثم اختلج قلبه عندما لفظت اسمه في هدوء:

- قاسم!

وكان صوتها ممتلئًا بالافتقاد وصوت أنفاسها يعلو كأنها توشك على الموافقة، توشك على إخباره بأنها عائدة إليه، حتى تهدج صوتها فجأة بعد أن صارعت رغبتها في البوح وقالت:

- الوداع!

وانغلق الهاتف.

غضب قاسم بشدة، ثم قال صائحًا:

- سوف آتي إليك إذا..

وجد نفسه دون أن يشعر حاملًا حقيبة جلدية صغيرة حاملًا أمتعته من آخر

رف في خزانة الملابس استعدادًا للسفر للمرة الأولى في حياته، فهو رجل لا يميل إلى المغامرة، ولم يخطر على باله يوما أنه قد يترك بلدته بالكامل للرحيل إلى بلد أخرى.. إلى شعب مختلف تمامًا يعيش تحت لواء آخر، كان ذلك أمرًا مستبعدًا إلى درجة كبيرة حتى وقع في الحب، فمنذ أن غادرت سارة رحاب القصر غاضبة وهو يشعر بالخطأ الذي ارتكبه في حقها والندم على أنه لم ينصت بالشكل الكافي.. ورغم أنه لا يصدق رفضها للسحر الذي ارتمي بين أحضانهما، إلا أنه لا زال متعلقًا بروحها ويعرف تمام المعرفة أنها تبادله ذلك الشعور، ولهذا قرر أن يذهب إليها.. من أجل أن يحاول قصارى جهده في إقناعها بالعودة معه، لعله يحظى بالحياة التي حلم بها بعد كل هذا.. ورغم أنها رفضت طلبه بحياة السعادة الأبدية إلا أنه شعر بضرورة المحاولة حتى ولو كانت ستبوء بالفشل هي الأخرى.

سافر وحيدًا على متن باخرة.. ساعده السيد عيسى في تقصي محاولة الحجز عليها، بينما لم يكن قاسم يمتلك سوى عنوان سارة في إيطاليا.. والذي كانت قد أعطته له من قبل أملًا منها في أن يزورها في شتاء عام بهيج بعد الانتهاء من الرواية، وبعدما استطاع السيد عيسى أن يؤمن معه أمور الحجز كاملة استعد لخوض الرحلة دون التنبؤ بنهايتها، كل ما يعلمه أنه سيرى حبيبته وسيحاول إقناعها بالعودة مهما كانت ردة فعلها.

***

وصل قاسم إلى رحاب المدينة الإيطالية جنوى.. كان كثيرًا ما يسمع عنها في الروايات والكتب على أنها ميناء بحري أكثر منها منطقة سكنية.. وكان الناس فيها محظوظين بالمناخ الذي لا يقسو عليهم أبدًا، بل يواصل اعتداله في سلام وهدوء يلائم كل فصول العام، وكان البحر يبدو كحيوان أليف لا يفكر في إيذاء

صاحبه بأي شكل.. كانت النسمات التي يبعثها بمثابة رسائل حب مستمرة.

لم يكن قاسم يعرف كيف سيكون شعور سارة فور أن تراه.. هل ستفرح؟ هل سترفضه مرة أخرى؟ هل هو متأكد أنه سيجدها في بيتها؟ ربما تكون سافرت إلى مكان آخر.. كانت رحلة نحو المجهول، لكنها كانت رحلة إجبارية.. فور أن دخل إليها بشّت ملامحها وشعر أن كل شيء سيكون بخير بمجرد أن رآها.. نادته بلهفة:

- قاسم؟! كيف جئت إلى هنا؟!

كان اندهاشها يمتزج بالسعادة التي تحاول غمرها في تحدٍّ بعدما أخبرتها الخادمة بقدوم ضيف مصري، وما إن تبعتها سارة حتى وجدته يتلفت حوله في هدوء مراقبًا اللوحات كعادته التي لا تنقطع أبدًا كلما دلف مكانًا يزخر بها.. سعادتها فضحت بعض الشيء حينما التفت لينظر إليها وهي في ملابس النوم التي يغطيها روب أزرق طويل يلامس الأرض.

- لا يهم كيف جئت! المهم هو لماذا جئت! أنا أرغب في الاستماع إليك يا سارة، أرغب أن أسمع منك كل شيء باستفاضة كاملة.. لم أصبح مقتنعًا بمحادثتنا الأخيرة.. بها شيء من الظلم لي ولك أيضًا.. هذا حقنا المشترك على ما أعتقد.. لا أظن أن حديثنا قد انتهى عند الحد الذي لا تفسير له!!

- أظن أنني أتذكر جيدًا آخر ما قلته لي، واتهامك بأنني لا أكنّ لك قدر الحب المطلوب أليس كذلك؟!

- نعم..

- وماذا تريدني أن أقول بعد ذلك؟ إن اتهامك يكفيني كرسالة لي أن أبتعد.. وأنا شخص طموح يا قاسم يخشى الفشل مثلك تمامًا؛ ولذا أردت أن أعود سريعًا لمتابعة ما أود فعله لمستقبلي.

- مستقبلك معي وأنت تعرفين ذلك.. لا تخبريني أن ما حدث بيننا كان طبيعيًا أو أنه محض صدفة؛ لأنني لن أصدق ذلك. كما لا أصدق أنك لا ترغبين في تجربة السحر الذي أهداه إلينا السيد مراد قبل أن ترتفع روحه مرتاحة إلى الحبيبة التي عاش لأجلها طيلة هذه السنوات.

- إذًا فلتعش من أجلها أنت أيضًا!...

جاء الصوت من خلف سارة لرجل قَعيد يبدو في الخمسين من عمره أو ربما أكبر من ذلك بقليل، رأسه يغطيها الشيب ولحيته كذلك، يرتدي قميصًا أبيض يبرز عظام جسده وجلده المائل إلى الحمرة وفي يده كوب كبير من القهوة الساخنة اقترب الرجل بكرسيه المتحرك، بينما انتفض قاسم في مكانه وهو يحاول تزييف الترحاب به بعدما فهم أنه والد سارة دون أدنى شك، خاصة أنه لم يستطع ترجمة هذا الترحاب بالإيطالية فقال بعفوية سريعة:

- تشاو! أه مرحبًا، مرحبًا بك يا سيدي.. سنيور..

كان تلعثمه تلقائيًا لدرجة جعلت سارة تعجز عن إخفاء ابتسامتها رغم عبوس والدها الذي استمر للحظات؛ مما جعلها تحاول إصلاح الأمور بأي شكل فقالت:

- إن أبي يتحدث العربية مثلي يا قاسم لكنه لا يتطوع بالحديث إلا إن دعوته لذلك.. والتفتت إلى أبيها في اللحظة ذاتها لتقول:

- أبي، تكلم بالعربية لو تكرمت؛ فإنه لا يتقن الإيطالية بعدُ.

عقد الأب ذراعيه بعدما وضع كوب القهوة على المنضدة التي تستقر أمامه في هدوء:

- لا يهم، كنت أقول يا قاسم إنه يمكن أن تعيش من أجلها كما تقول بالضبط دون الحاجة لسحر أو غيره، هل لديك مشكلة؟!

لم يستطع قاسم إخفاء توتره حينما تحدث الأب بكل صراحة هكذا أمامه. حاول أن يتماسك قدر الإمكان، إنه في منزل الرجل مهما كان وبالطبع كان يتوقع مثل هذا اللقاء، كل ما في الأمر أنه لم يتوقع أن يحدث بهذه الطريقة والسرعة والصراحة التي لا مقابل لها سوى الصراحة الكاملة أيضًا، مما جعله يجيب في ثبات مفتعل:

- أريد ذلك كما تريده سنيورينا سارة وأكثر يا سيدي، كل ما في الأمر أنني أمتلك العالم بأكمله في يدي ولا أريد أن أستغني عن ذلك الإرث لمجرد أنها تفهمني بشكل خاطئ. إن مسألة التميمة تلك لم أكن أتوقعها أبدًا وأصابني الذهول تمامًا عندما أخبرني السيد مراد بذلك، إنني شاب بسيط لم تُعوِّدني الحياة على مثل هذه المفاجآت، وقد عشت حياتي بأكملها وحيدًا لا أحلم بما ليس لي، لكني الآن أمتلك كل شيء، أمتلك قلبًا يحبني مثلما أحبه.. وفي الوقت نفسه أمتلك قصرًا ساحرًا يعدني بالحفاظ على هذا الحب فكيف أتركه؟ أعرف أنني سأندم طوال حياتي إن فعلت ذلك، أريد أن أكتب عن حياتنا هناك وأريد للناس عن تقرأ عن جمال هذا السحر عندما أختبره بنفسي.

ظل قاسم يتحدث وعيناه تلمعان كلما أطال في الحديث بشكل لا إرادي..

لاحظه والد سارة.. كما لاحظت ذلك سارة نفسها والتي بدت على وجهها علامات الامتعاض الشديد مما يقول؛ إذ إنها لم تكن تستوعب مدى الهوس الذي يحيط بقلب قاسم.. ذلك الشاب المصري العادي البسيط الذي وقعت في حبه، وكانت تظن أن حكاية التميمة مجرد عثرة سيتمكنون من تخطيها مهما حدث، وأنه فور رؤيتها له في إيطاليا إشارة صريحة بأنه يوافقها الرأي.. ونادم على عرضه الأول.. لكن يبدو أن ذلك أمر لن يحدث أبدًا.. أوقفته عن الحديث دون تمهيد قائلة:

- فلتعش إذًا مع حبيبة أخرى يا قاسم تقبل ما تطمح به، أنا لا أطمح للعيش في ظل تميمة ما، أما أنت فيبدو أن كل ما تطمح به يتعلق بتلك التميمة..

وقبل أن يتمكن من مقاطعتها أشارت بيدها ألا يفعل، واستمرت في الحديث.

أنا يا قاسم أدعوك بشكل واضح أن تقبل رفضي عرضك كاملًا.. وبطريقة مهذبة دون الخوض في تفاصيل لن تغير من وجهة نظري مهما فعلت.

ما إن وجد قاسم أنها تصر على هذا الرأي حتى حاول استمالة والدها بقوله:

- فلتخبرها يا سيدي كم كنت تحب مصر وأهلها والعيش بها، أنا أعلم ذلك من السيد مراد نفسه فقد حكى لي عنكم الكثير وإن ذلك القصر هو هديته الخاصة على ما كتبته من أجله.

- أنا أقدر حبك لابنتي يا قاسم، وأراه في عينيك، لكني لا أراه في قلبك، ولتعلم أن الحب الذي أرغب فيه لابنتي هو حب كامل غير مشروط، ولا يمكنني أن أدفعها إلى العيش في مكان يأسر مشاعرها، وإلا كنت أدفعها بيدي إلى الجنون!

قالها والد سارة وهو يتحرك في إشارة منه لرغبته في إنهاء الحديث دون

الخوض في تفاصيل أخرى.. مما جعل قاسم ينهض من مكانه سريعًا بعدما ظن أنه يوجد بصيص من الأمل.. لكن الأمور قد باءت كلها بفشل لم يتوقعه.. كان المشهد غريبًا وموحشًا إلى درجة جعلته يطيل النظر في عيني سارة للحظات لكنها سرعان ما أبعدت هي عينها عنه ناظرة إلى والدها، والتي كانت فخورة بكونه يبادلها الرأي، وبعد لحظات من الصمت لم يتمكن فيها قاسم من قول أي شيء استأذن منهما في هدوء وهو يقول:

- لم أكن أعرف أنه يمكن للإنسان أن يكذب بشأن مشاعره يا سارة، ولكني سأفعل ويبدو أنني في حاجة لهذا الادعاء إلى الأبد، أنا لن أزعجك مرة أخرى ولا أعرف مصير الرواية التي أكتبها بعدما رفضتْ أن تقرأيها وغادرتِ هكذا بقرار نهائي بلا عودة، لكني سأحاول أن أجد هذا المصير وحدي.. أريد أن أشكرك على تلك المرات التي جعلتِ فيها قلبي ينبض.. فأنا لم أكن أعرف أنه يمكنني الإحساس بهذا، أعتذر على هذا الوقت.

قالها قاسم وخرج على الفور، وخرج إلى رحاب «جنوى» التي لم يكن يعرف عنها شيئًا. لكنه أراد أن يلتقط أنفاسه، كان كل ما يدور في عقله أن العيش في القصر سيكون موحشًا إلى درجة لن يتحملها.. وكان الصراع النفسي يقتله هل كان يجب أن ينتظر ليفكر أكثر.. هل يجب أن يتنازل عن حقه في العيش تحت ستار قوة خفية ستحمي قلبه وقلب من يعيش معه إلى الأبد.. كان القرار صعبًا عليه، إن من يذوق الوحدة ولو لبضعة أيام لا يختار أبدًا احتمالية أن تحدث له مرة أخرى، وإن من يحيا دون أن يعي ما ينتظره مستقبلًا لا يمكنه أن يُلقي بمفتاح هذا المستقبل في أعماق النهر.. نعم أحبها ولكن الحب أحيانًا ما يتجسد في صورة عملاق كبير قوته الخارقة هي الأنانية، ولا يمكنك أن تقف أمامه

وتحاربه لأنه سيلقي بشباك الأنانية عليك، فتظهر أنت في صورته وينتهي بك الأمر في مصيدة الفراق والوحدة من جديد.. وكانت تميمة القصر بالنسبة إلى قاسم هي ملاذه الآمن الوحيد.. وكانت سارة هي حبه الوحيد.. كما يظن.. ولم يعد يدري بما يجب عليه أن يضحي وكلاهما مرتبط بالآخر.

ظل قاسم ينظر في وجود الناس من حوله وإلى ملابسهم التي تشترك في اللون الأبيض كثيرًا وكأنه الزي الرسمي للمدينة.. ورغم أنه كان يتماشى مع المناخ الصيفي الجميل إلا أنه كان يبدو غريبًا بعض الشيء عندما تمعن النظر به، لكنه حاول تتبع المارة واحدًا تلو الآخر لعل أحدهم ينتوي الذهاب للبحر فيرشده إلى الطريق الذي لا يمكنه السؤال عنه بطريقة تفصيلية، وإن تمكن من السؤال فلن يتمكن من فهم الإجابة.. ظل يتتبعهم وهو يفكر في مصيره بالأيام القادمة، وإلى أين سيذهب ولمن سيشكي حاله.. فكر للحظات أنه يحتاج لصديقة، يحتاج لأهل يفهمونه، أراد أن يقوم بزيارة أميرة ووالدتها عندما يعود لأسيوط لكنه لم يكن يعرف كيف سيخبرها بما حدث وما يحدث، فإن أمر التميمة يجب أن يكون سرًا، وإن ظل هكذا فلم يكن يريد للطامعين أن يعرفوا له طريقًا أو للحكومة أن تحوله لملكية عامة، ظل هكذا في حيرة من أمره حتى وصل أخيرًا إلى ضفاف البحر الذي كان يتمناه.. لعله يعطيه الإجابة.

ولكن العودة إلى مصر كانت هي الخطوة الأولى رغم كل شيء.

***

(١٣)

العزلة.. العزلة هي الخيار الوحيد الذي يمكن أن يقي قلب إنسان لا يرغب في تذوق الحب مجددًا، ولم يمتلك قاسم خيارًا آخر غير التوقف عن ملاحقة حب لا يربده في كل مكان. ولا يمكن أن يحاول أن يحقق ما يكتبه بالروايات، رغم أنها أحيانًا ما تبدو غاية في السهولة والجمال، جمال لا يطابق الواقع أبدًا.. فالواقع يمكنه أن يصل إلى درجة من القسوة لا نتوقعها أبدًا ولا يمكننا محوها بسهولة كلما أردنا.

سار قاسم في طريقه إلى القصر بعدما عاد لمصر، عاد وحيدًا منعزلًا.. لا هو يستشعر الأمان في الحديث مع الغرباء ولا الغرباء يجدون الفضول الكافي في النظر إليه من الأساس، ظل يسير في صمت تام راغبًا في بلوغ بوابة القصر دون التعرض لأي من المارة ولو بنظرة بسيطة حتى، وكل ما كان يجول بخاطره هو أنه على يقين تام أن حياته ستختلف اختلافًا كبيرًا عما يجري حاليًا، وأنه لا يمكن أن تفتح له أبواب الدنيا هكذا فجأة لتقفل مرة أخرى بنفس السرعة.

انفتح باب القصر أمامه ليجد السيد عيسى في استقباله وعلى وجهه أمارات القلق يسأله عن حاله وعن سفره.. يطمئنه على أحوال القصر ويخبره بكل من حاولوا زيارة القصر في الآونة الأخيرة، لكنه ظل شاردًا في الفراغ لفترة طويلة جعلت السيد عيسى يتوقف عن الحديث، وكان قاسم قد قرر الصمت حتى يستعيد روحه في المكان الذي دلف إليه بجسده فقط.. بعد فترة سأل السيد عيسى مرة أخرى، ولكن بصوت عالٍ هذه المرة:

- سيدي! سيدي! هل حدث شيء في إيطاليا؟ هل أنت بخير؟

ظل يردد كلماته هكذا حتى انتبه قاسم وخرج من غياهب أفكاره وحاول أن يعي ما يدور من حوله ويتأمل في جدران القصر في هدوء حتى وقع نظره على السيد عيسى الذي يقف أمامه في قلة حيلة وأدرك ما كان يحادثه بشأنه للتو فأجاب كمن يحاول استعادة عافيته:

- أنا بخير، أنا بخير يا سيد عيسى.. لكنني لا أريد الخروج من القصر للأبد..

***

ليل يحتضن نهارًا وآخر يودعه، خريف يستقبل شتاء وشتاء يسلم عدته للربيع، واحدًا تلو الآخر، وقاسم على فراشه لا يعرف صديقًا سوى الأحلام والقلم الذي يأخذ شكل الريشة وفي سواده نقاء غريب يعكس وجهه المرهق من الأيام. إلى يمينه علبة الحبر القاتم الذي استمع إلى أسراره في الفترة الماضية، استمع إلى كل لحظة من يومه وإلى كل رغبة أراد أن يشبعها وكل لقاء أراد أن يرتبه لكن القدر لم يوافقه الرأي، كان يحكي عن كل شيء وعن أحلامه في المقام الأول.. إذ إنه لم يكن يمر عليه يوم دون أن يحلم بشيء غريب.. يستيقظ وكله رغبة في تدوينه وسرعان ما كان يستجيب لهذا النداء أملًا منه في أن تتجدد رغبته في الخروج إلى النور وإلى العالم الحقيقي.. لكن ذلك لم يحدث.

عام ونصف قد مروا، عام ونصف وقاسم على حالته لا يرى أحدًا ولا يعرف للشمس نورًا سوى الشعاع الذي يتسلل إليه من نافذة الغرفة، والآخر الذي يأتيه مع هزة باب الغرفة حينما يدخلها السيد عيسى جالبًا قدرًا من الطعام يكفيه لممارسة الحياة، حتى ظن الناس أن القصر صار مهجورًا بعد وفاة السيد مراد.. وأن الحياة لن تعود إليه أبدًا، عام ونصف دون أن يزور النيل ليشكو إليه آلامه

ويسأله في المساعدة كالمعتاد!

في إحدى الليالي فتح قاسم باب الغرفة أملًا في استعادة بعض الطاقة التي غابت عنه.. وما إن خرج حتى وجد نفسه منساقًا إلى غرفة الطعام ومنها إلى غرفة المكتب التي جذبته للكتابة بها هذه المرة، لعلها تعطيه الإلهام الكافي لكتابة قصة جديدة مغايرة للواقع الذي حفظته الأوراق وصارت تمل منه.. أو ربما أنها تشفق عليه دون أن تحاول التدخل في شئونه، وما إن دخل حتى وجد السيد عيسى خلفه يسأله في هدوء:

- هل أعد لك كوبًا من الشاي يا سيدي؟

وابتسم مكملًا:

- سأضع لك النعناع فيه.

بادله قاسم الابتسامة قائلًا:

- من فضلك يا سيد عيسى، وأرجو أن تكون قد سمحت للخدم بالمغادرة من نفسك هذه المرة، فمن حقهم أن يستريحوا في أيام هادئة كتلك.. لا أريدهم أن يتحدثوا عني بسوء في نهاية المطاف!

- نعم نعم سمحت لهم يا سيدي، لكنهم لن يتحدثوا عنك بسوء أبدًا كيف يفعلون ذلك وأنت الرجل الذي جعلهم يبقون في رحاب القصر العظيم رغم عدم حاجتك إليهم!

- نظن أن الأيام قاسية يا سيد عيسى ليفاجئك القدر بما هو أقسى، لم أكن أعلم أنني سأكون هذا الشخص في النهاية، فقد كان ما يدور في مخيلتي عكس

ذلك تمامًا.

- وهل كل ما يدور بمخيلتنا يتحقق يا سيدي؟ إن الحياة اختبار متجدد باستمرار لكني أشفق على شبابك يا بني، اسمح لي أن أناديك بني فأنت في عمره تقريبًا.

- بالطبع يمكنك.

- لقد أحبك السيد مراد كثيرًا، وأنت تعرف حجم المعروف الذي فعلته من أجله، وأظن أنه آن أوان أن تستكمل هذا المعروف، وأن تستغل كل شيء يناديك من حولك، إن القصر نفسه يرغب في أن يعيد إليك روحك.. وصدقني فإنك لو طلبت المساعدة فسيساعدك من دون شك.. أرجوك لا تجعل الأمر يضيع هباء من بين يديك! منذ أن أخبرتني بهذا السر وأنا أتعجب من تصرفاتك كثيرًا، فأنت تمتلك كل شيء ولا تعي حجم النعم التي تحيط بك.

- وماذا تريدني أن أفعل يا سيد عيسى؟ هل أحاول العثور على من يرغب في العيش معي رغمًا عنه؟ هل أكتب شيئًا خياليًا لأستعيد ما ليس لي؟! هل أحيا في حكاياتي فأنسى واقعي؟!

- ولِمَ لا؟

- لأنني سئمت!!..

قالها قاسم وهو يلقي بالأوراق المستقرة على المكتب الخشبي منذ فترة في غضب ظهر جليًا في نبرة صوته وأكمل:

- سئمت كوني الشخص الذي ينقصه شيء ما، أولًا كان لدي العائلة لكني لم أكن

أمتلك الفرصة في النجاح التي تجعلهم يفخرون بي، ومن بعد أن امتلكتها فقدت العائلة بأكملها، وحتى عندما امتلكت قصرًا يعوضني عن سنوات الوحدة بأكملها ويعطيني الإلهام الذي يكفيني لمواصلة المشوار تخلى عني الحب في أول الطريق، فصرت وحيدًا لا أملك سوى الورقة التي لو كانت إنسانًا لقامت بسبابي وتركي في النهاية أيضًا، ما الذي ينقصني؟

- ينقصك أن تعرف أن الإنسان لا يدرك أهمية الشيء إلا عندما يضيع من يده!

- هل يبدو لك هذا القصر مكانًا على استعداد لاحتضان شاب وحيد مثلي؟ ألا يبدو مكانًا ملائمًا لقصة حب تدوم لأعوام؟ ألا أستحق أن يزورني النور في أعتم لحظات حياتي؟!

- بالطبع تستحق.. ولكن.. ينقصك التصديق بأن ما تسعى إليه يسعى إليك، وأن كل ما ترغب به لن يرغب بك إلا إن تحركت خطوة تجاهه، وإن لم تكفِ تلك الخطوة فيجب أن تعززها بأخرى وأخرى.

- لكنني..

جلس قاسم على المقعد الخشبي دون أن يستطع استكمال حديثه الذي يبدو أنه لم يكن مقنعًا حتى لعقله الخاص، وارتمى بجسده يستند للوراء رافعًا رأسه يفكر.. لا يهتدي إلى نتيجة واحدة.. وبعد فترة من اليأس الذي سكن الغرفة بأكملها ونظرات طالت من السيد عيسى إليه أراد أن يتحرك لكن من دون فائدة حتى استفاق من شروده على حديث السيد عيسى الذي فاجأه بقوله:

- هنالك ما أريد إخبارك به.

- ماذا؟

- أنا أعرف أن السيد مراد قد ترك لك الكثير من الأموال في خزينة القصر إضافة إلى العديد من الأشياء التي لا أعرفها لكن هنالك شيء واحد لم يكن يرغب في إعطائك إياه بعد وفاته مباشرة بل أعطاني إياه، وأوصاني أن أجعلك تقرأه إن مرت فترة وأنت تعيش وحدك في رحاب هذا القصر.

- ماذا أعطاك؟ هل توضح من فضلك؟

- قالها قاسم عاقدًا حاجبيه بعدما فطن أن ما يتحدث عنه السيد عيسى ربما يكون خطابًا أو رسالة قصيرة أو ما شابه ذلك.

- خطابًا لتقرأه، إنه ظرف صغير أعطاني إياه السيد حينما اشتد عليه المرض وكنت أنت والسيدة سارة تراقبانه في فراشه من وقت لآخر، لكنه أوصاني ألا يخرج الأمر من جوفي إلا إذا ظللت على تلك الحالة وحيدًا دون أن يشاركك أحدهم الحياة في هذا القصر، وأوصاني أيضًا ألا أخبر السيدة سارة به أبدًا؛ لأنه ليس للأمر أية علاقة بها.

لم يفهم قاسم ما قاله السيد عيسى للتو ولم يستطع أن يتوقع مضمون الرسالة؛ فأمره أن يحضرها فورًا وبالفعل غاب السيد عيسى لدقيقتين تاركًا قاسم في حيرته قبل أن يعود وهو يحمل مظروفًا أبيض اللون وفي داخله ورقتان تبدوان أكبر مما كان يتوقع على الأقل وسلمه إياهما واستأذن منه كي يرحل لأنه يعرف أن الأمر لا يخصه بالطبع وأن مهمته قد انتهت عند هذا الحد.

اعتدل قاسم في جلسته وهو يقتطع جزءًا عرضيًا من الظرف الصغير ويخرج

الورقتين ليتطلع إلى الكلمات المكتوبة بخط مبعثر غير مرتب، الأمر الذي جعله يفكر أنه ربما قام السيد مراد بكتابته وهو مريض لكنه لم يُعِر الأمر انتباهًا شديدًا، وبدأ في فرد الورقة الأولى ليقرأ ما بداخلها وعلى وجهه علامات الدهشة مما يقرأ تباعًا. كتب السيد مراد:

«قاسم.. إن كنت تقرأ هذه الورقة الآن فأنت وحيد تمامًا كما توقعت، ولهذا عليك أن تنصت إليّ يا بني دون أن تتحفز تجاه كلماتي من الوهلة الأولى.. منذ أول مرة رأيتك فيها وأنا أعلم أنك شاب لا يكتفي من الأحلام وأن ما ترغب به لن يتوقف عند حد معين، معك عذرك يا بني فأنت كاتب موهوب ولا يمكن لكاتب أن يتوقف عن تخيل الحيوات التي يمكن أن يعيش بها، لكنك تفتقر لأهم شيء في الوجود يا صديقي الصغير وهو تصديق روحك! وما يمكنها الشعور به وبلوغه.. ولهذا أردتك أن تصل إلى هذه الحقيقة بمفردك دون تدخل مني أو من أحد.. لكن يبدو أنك لن تفعل أو أنك لا تعرف مدى قدرتك على الفعل.

اهرب يا قاسم.. اهرب وفر من حدود عقلك وقلبك معًا ولا تجعلهما يتآمران عليك فتظن أن الصواب يسكن في طريق واحد.. وأنه لا يمكنك إيجاد الصواب في طريق آخر، اهرب من حدود المكان الذي تنظر إليه، واعلم أنك لو نظرت لغيره لربما يبادلك النظر في نهاية المطاف!

حسنًا.. دعني أتوقف عن التحدث بأسلوب الألغاز إلى الآن وأحكي لك شيئًا لم تكن تعرفه أثناء كتابتك للرواية وأثناء أحاديثنا التي تتوقف قط!

إن فيروزا لم تكن حبي الأول يا قاسم.. لم تكن الفتاة التي جعلتني أوقن قدرتي على الشعور بالحب، بل كانت الفتاة التي كنت أعي حجم رغبتي في أن

أحيا معها لبقية حياتي ولذلك عندما استطعت بلوغ التميمة تمسكت بها للأبد.. لكنها لم تكن من دفعني إلى عالم الحب الذي لا يرحم في البداية، بل كانت امرأة أخرى تختلف عنها تمام الاختلاف؛ تختلف عنها في الشكل وفي الروح وفي الأحلام وفي كل شيء! وظللت أحبها لعامين أو أكثر ظنًا مني أن الحياة لا يمكن أن تصبح شيئًا يستحق من بعدها.. لكنها رفضتني رفضًا قاطعًا حين علمت برغبتي في السفر إلى الخارج من الأساس.. وافترقنا حينها وكأننا لم نقع في الحب أبدًا.. وكنت يومها أسير وأنا أحمل هم العالم على عاتقي.. حتى جاءت فيروزا..».

انتهت الورقة الأولى فتناول قاسم الثانية في لهفة وأكمل القراءة:

«..أنا أعرف أنك لا تصدق أنني لم أخبرك بذلك خاصة أنني وعدتك أن أحكي لك كل شيء في سبيل الرواية، لكن اعلم أن الحب الذي أكنه لفيروزا يمنعني حتى من الحديث عمن قبلها، إنني أشعر أحيانًا أن تلك خيانة لها في الأساس.. وأنه لا يجب على لساني أن ينطق باسم غير اسمها، أو أن يذكر حكاية غير حكايتها.. لكني شعرت أنه من حقك علي أن أخبرك أن هنالك ما يشوب تلك البداية المثالية التي تعتقد فيها يا بني، فأنا لم أعرف الحب من خلال فيروزا بل على العكس تمامًا كنت ذاهبًا إليها وأنا أرغب بها لا بالشعور الذي يجتاحني.

كنت منكسرًا حزينًا ولا أعرف كيف سأتمكن من العودة إلى الطريق الذي رسمته لنفسي من قبل، وكيف سأستطيع أن أذوق الشعور ذاته مع امرأة أخرى، حتى فطنت إلى حقيقة الأمر، إن الحب الحقيقي لا يأتي سوى مرة.. وتلك المرة لا تحتاج منك لبذل مجهود مضنٍ للتعرف عليها.. بل كل ما عليك فعله هو الاستسلام لها دون أن تضع مسمار الشك في سفينتها.. وحينها فقط ستتمكن من

فهم الفارق يا بني، إن الحب لا يترك ولا يفارق ولا يجرح ومن ثم لا يعود لمداواة الجرح، على العكس تمامًا إن الحب هو ما يبقى ملتصقًا بك رغم كل شيء.. هو ما يربدك حتى إن كنت غير مستعد، أنا كنت على أتم استعداد للزواج من الفتاة الأولى إن انتظرتني لكني أيقنت أن الحب لا يحتاج لكل هذا العناء والتخطيط.. بل يحتاج إلى تصديق قدرتك على الوقوع به فحسب.. وهذا ما فعلت مع فيروزا، صدقت حبي لها وصدقتني فصرنا معًا إلى بداية الطريق من جديد، صدقت أنني يمكن أن أختار بشكل خاطئ وأنه يمكنني أن أعاود الاختيار مرة ثانية فأقف على قدمي من جديد، إنه لا ضرورة للاستسلام عندما يتعلق الأمر بشعور إنساني عظيم كالحب.

إن الاستسلام أمر يقود إلى مزيد من الفراق يا قاسم، وها أنت تكذب نفسك وتكذب روحك التي تخبرك بقدرتها على الوقوع في الحب مرة ثانية، تضعها في قالب ليس بقالبها يا بني، إن روحك تستغيث وتنادي عليك كي تصدق قدرتها على الشعور وعلى استيعاب روح أخرى تتفهمك وتتفهمها، ترغب في العيش معك وترغب في العيش معها.

صدقني، إن الحب يرفض امتلاك أية صورة مثالية حمقاء، بل يجتاحنا على حالتنا أيًا كانت..»

مراد آزاد

***

(١٤)

جلس قاسم على الأريكة الحمراء في صالة القصر الواسعة وبيده الورقتان اللتان انتهى من قراءتهما، كان يفكر في أنه ربما لم يبذل الجهد الكافي لبلوغ مراده من الحياة.. وأنه ربما عليه أن يواجه نفسه بسلبيته في السنوات الأخيرة التي اعتزل فيها الحياة بأكملها، وها هي القصة المثالية التي ظن أنه يرغب في يحيا مثلها تمامًا لم تكن بهذا التفرد الذي كان يظنه.. بل كانت هي الحب الذي جاء بعد عناء مع الحياة من قبله، ولم يكن الحب الذي تمناه قلب مراد في البداية بل الحب الذي باغته، فكر قاسم مليًا في الأمر.. ورغم أنه كان خاوي القلب في تلك الآونة التي لم يسمع فيها من حبيبته ولو جوابًا واحدًا.. إلا أنه كان يشعر برغبته في المحاولة مرة أخيرة قبل الاستسلام للأبد وظل يسأل نفسه: هل جاءت تلك الرسالة كإشارة من الحياة على عدم الاستسلام؟! هل يجب أن أتحرك في سبيل من أحب من جديد؟! هل يجب أن أعيد الكرة.. لكن بأي ثمن؟! فقد خسرت كرامتي في المرة الأخيرة ومن يعلم ماذا سأخسر الآن؟!

كان تائهًا يضرب عقله عرض الحائط ويعود إليه بلا إجابات واضحة، لكن الشعور الوحيد الذي كان يفهمه تمامًا هو أنه على استعداد للمحاولة، على استعداد لكتابة فكرة خيالية والتوقف عن الكتابة عن يومياته البائسة ولو للحظات من الزمن، على استعداد للخروج من بوابة القصر والنظر في عيون الناس دون خجل أو وجل، بل والأهم من ذلك أنه على استعداد لإخراج رواية (قصر مراد باشا آزاد) إلى النور! فلا يمكن أن ينتظر أكثر من ذلك وهي السبب في مجيئه إلى هنا! ظل يحدث نفسه: هيا يا قاسم إن الحياة ترسل إليك طعمًا جديدًا فلتمسك به وتضعه في فمك، ولعل الصياد يكون طيب القلب هذه المرة،

هيا ولا تخاف مثل كل المرات التي خفت فيها وخسرت..

قام من مكانه في ألم اعترى رأسه فجأة؛ إذ إنه لم يعتد الحركة في الأيام الكثيرة الماضية، لكنه حاول أن يقاومه في صمت وهرع إلى باب غرفته يفتحه بقوة حتى انفتح على آخره ومنه على خزانة الملابس مباشرة ليحضر ما تبلغه يداه حتى يرتديه ويخرج إلى النور لعله يخبره بوجهته القادمة.

ارتدى بذلته الزرقاء التي لا يملك أكثر منها! ظل يحدث نفسه أمام المرآة وهو يتجهز للخروج ورغم أنه لم يكن على استعداد كافٍ لذلك إلا أنه خرج بكل ثقة من باب الغرفة وهبط السلالم بسرعة جعلت السيد عيسى يخرج متعجبًا لكن ما إن وجده حتى سأله في دهشة:

- هل ستخرج يا سيدي أخيرًا؟

- وماذا أبدو لك فاعلًا يا سيد عيسى؟ نعم سأخرج وسأرى ما فاتني لعلني أستعيد الأوقات التي ضاعت من عمري بنظرة أخيرة على نهر النيل.

- أخيرة؟

- نعم.. ستعرف كل شيء في حينه..

فتح قاسم بوابة القصر العريضة بهدوء يتجهز للخروج، وإذا به يفاجأ بوجه لم يخطر على باله أن يجده أمامه في تلك اللحظة.. إنه وجه أميرة أو ربما نصف وجهها؛ عينيها اللتين تطلان من خلف اليشمك الذي يأخذ شكل الشبكة السوداء التي تحاول ستر ما يمكن ستره من وجهها المشرق، جعلته نظرتها الصامتة لبضع دقائق يتسمرّ في مكانه ولا يعي ما يمكنه قوله.. مما جعله يصمت هو الآخر

وينتظر أن توضح له حقيقة تواجدها هنا، شعر للحظات كم أنه يفتقد ذلك الوجه، وأنه كان يتمنى لو أنها زارته منذ فترة طويلة ولم تنتظر كل هذا الوقت..

بدا الاندهاش واضحًا على وجه قاسم في اللحظة التي نطق فيها السيد عيسى محاولًا إنهاء اللحظة الصامتة التي طالت بينهما وهو يقول:

- أهلًا بك آنسة أميرة.. تفضلي لقد اشتقنا لك كثيرًا..

بدا وقع حديث عيسى ونبرته مع أميرة غريبًا بعض الشيء، فهو لم يرها سوى مرة واحدة وكانت في أيامه الأولى بالقصر؛ أي أن الأمر لم يتعدَّ سوى بضع دقائق لا أكثر ولا أقل.. من أين له أن يعاملها بكل هذه الألفة! حاول مراقبتهما وهما يدخلان إلى القصر وهو يدخل خلفهما؛ حتى يتبين له أي شيء مما يرغب في معرفته لكنه لم يستطع مما جعله ينتظر حتى جلست أميرة في أريحية وكأنها تعرف المكان عن ظهر قلب.. رفعت اليشمك في هدوء عندما توارى السيد عيسى عن الأنظار متحججًا برغبته في عمل القهوة التي ترغب بها أميرة على الفور.. وما إن فعلت ذلك حتى جلس قاسم قبالتها في هدوء.

- ما الذي؟ كيف يعرفك..؟ وهل أنت؟

نظرت إليه في هدوء يضفي جمالًا على جمالها وهي تقول:

- ماذا بك يا قاسم أنسيت الكلام إلى هذه الدرجة أم أنك نسيتني؟

- لا لا، إن ما يدهشني أنني كنت في أغلب الظن قادمًا إليك الآن، كنت أريد الحديث معك بشدة، لكن كل ما في الأمر هو أن تعامل السيد عيسى معك يبدو غريبًا بعض الشيء؛ فهو لا يعرفك.

- بل يعرفني، يعرفني جيدًا. فأنا آتي هنا منذ عودتك من إيطاليا لأطمئن عليك وأنت في عزلتك رافضًا أن تقابل أي أحد، أردت فقط أن أطمئن عليك فحسب.

- كنت تأتين إلى هنا ولم يخبرني السيد عيسى؟! مستحيل؟!

- طلبت منه ألا يخبرك بعدما رفضت لقاء أي حد في المرة الأولى دون أن تعلم أنني من ينتظرك.. في كل مرة كنت أتقصى منه أخبارك وأطمئنه على أنك ستعود إلى ما كنت عليه إذا اعتنى بك جيدًا.. وها أنت تعود..

- هل تظنين أنني عدت لحالتي الآن؟

- على الأقل كنت على وشك الخروج من القصر الذي حبست نفسك فيه طيلة هذه المدة.. كنت قادمًا للحديث إلينا من جديد، لقد كنت متأكدة من أنه سيأتي اليوم الذي تفعل فيه ذلك بمحض إرادتك، أنت فنان يا قاسم والفنانون لا يحتملون البقاء في مكان واحد طيلة عمرهم، لقد كنت تحتاج وقتك للتعافي فحسب، وأنا أعرف أنك تعافيت من رغبتك في العزلة.. لكنك لم تتعافَ من رغبتك في الحب أليس كذلك؟!

- الحب.. كيف عرفتِ؟!

- قلت لك: إنني آتي إلى هنا كثيرًا.. ثم إنني لست بحاجة للمجيء أو سؤال أحدهم كي أعرف ما بداخلك، أنت صديقي الوحيد يا قاسم.. وأنا أرى من خلالك، واليوم الذي رأيت فيه تلك الفتاة علمت أن هنالك جرحًا غائرًا على وشك أن يحدث..

- لكني..

- لكنك لا زلت تحبها يا قاسم، وأظن أنه عليك الخروج كما أردت تمامًا، فكّر جيدًا واعرف وجهتك هذه المرة حتى لا تضيع.

حاول قاسم أن يرد عليها.. لكنه لم يجد ما يرد به على كلامها الأخير.. صمتت أميرة قليلًا ثم نهضت بهدوء من مجلسها وسارت في رقة جعلت قلب قاسم ينبض بالحنين القديم الذي أخفاه خلف أسوار القصر طيلة المدة الأخيرة.. لكن وجه سارة الذي تخيله أمامه فجأة جعله يستعيد تركيزه على رحلةٍ جديدة سيخوضها برغبةٍ كاملة منه.

***

Page (١٤١) ١٧٣ / ١٤١

(١٥)

لم يكن السفر خيارًا متاحًا لقلب ضعيف مثله يخشى غبار الطريق، ولم يكن ذلك القلب متأهبًا لجواب غير ما يدور في خلده، لكن الحياة تقول كلمتها عندما نعجز نحن عن الحديث، وما علينا سوى الخنوع وإلا صرنا أمواتًا أحياء على جانب مهمل منها، لا يشعر بنا أحد ولا نجد صديقًا يمكث للأبد سوى الغبار الذي كنا نخشاه..

يعلو صوت زقزقة العصافير لدرجة قادرة على إيقاظ حي بأكمله في نفس اللحظة، ويعلن ضوء النهار عن نفسه في ثقة جعلت «قاسم» مجبرًا على فتح عينيه اللتين لم تعرفا للنوم طريقًا منذ الليلة التي هيمن فيها الشتات على قلبه.. وتركته أميرة في حيرة من أمره، جعلته مسئولًا أمام نفسه، والأهم من ذلك أنها لطالما كانت صادقة معه.. ولهذا فلا يمكنه تجاهل الإشارات، كان يحاول الهرب من مواجهة القرار الذي اتخذه بالأمس.. يواصل التقلب يمينًا ويسارًا على فراشه.. لكن محاولاته في خداع النهار تبوء بالفشل فيضطر للنهوض في حركة سريعة تعبر عن الكثير مما يجول في خاطره، وفي خطوات متثاقلة يتجه للنافذة المطلة على عدد لا نهائي من الأشجار التي تحجب رؤية الشارع ولا تحجب ضجيجه ليوصدها ومن ثم يتجه للباب حاملًا أقرب ما وصلت إليه يداه من الثياب دون أن يكلف نفسه عناء النظر إليها..

لم تكن الحياة على نفس الشاكلة التي تخيلها؛ ولهذا قرر الرحيل لاتخاذ الخطوة التي لم يكن متأكدًا مما ستخلفه في نفسه بعد كل هذه السنوات، ثلاث سنوات من الانتظار قضاها قاسم على أمل وحيد، وها هو الأمل نفسه يدفعه

للمحاولة مرة أخرى، للتحرر من المناخ الآمن الذي اعتاد أن يستيقظ وينام فيه كي يضع لتساؤلات عقله حدًا لا حد بعده، وصباح اليوم هو الوقت الذي حان ليعرف فيما سيقضي السنوات القادمة من حياته.

خرج قاسم من بوابة القصر مندفعًا بقوة رغباته، بعدما مر على السيد «عيسي» الذي أفنى عمره في حراسة كل إصيص زرع وكل لوحة وكل مزهرية موجودة في أركانه، والذي يشترط النداء عليه أن تسبق اسمه بكلمة «السيد» حتى يجيبك ملبيًا برضا تام عن أي مما تقوله، وما إن امتثل قاسم لهذا الشرط حتى أجابه فأمره بأن يخصص وقتًا للسؤال عن أقرب موعد لباخرة متجهة إلى إيطاليا، وعلى الرغم من الدهشة التي أصابت السيد عيسى إلا أنه لم يستجب لرغبته في السؤال وانطلق فرحًا لتلبية الأمر، خاصة بعدما قرر صاحبه أن يخرج لمواجهة الحياة الحقيقية التي غاب عنها كل هذا الوقت.

لم يكن خروج قاسم موفقًا من اللحظة الأولى، فما إن تحرك لتظهر من خلفه لافتة «قصر مراد باشا آزاد» حتى استبدلت زقزقات العصافير المزعجة بأصوات العربات تجرها الخيول، فرغم تغير الزمن ودخول الحداثة إلى بقاع مصر بأكملها إلا أن بلدته أسيوط كانت لا تزال محتفظة بطابع القدم الذي يجعلك تتوقع استخدامهم لأي شيء وفي أي مكان، وخاصة الشارع الذي يحوي تلك التحفة المعمارية التي لا تقدر بثمن ولا بعين إنسان، تحفة قصر «مراد آزاد» التي دخلها قاسم رجلًا وها هو يخرج منها رجلًا آخر.. سار لمسافة شارعين بصحبة قبعته الرمادية التي تخفي ما يعلو رأسه من شعر مهندم مستوٍ لا طويل ولا قصير شديد السواد، وراح يلملم أكمام بذلته ويحني قبعته قليلًا للأمام كي يتفادى نظرات الناس التي اتضح أنه لم يكن مستعدًا لها، فهو لم يكن مستعدًا لأي شيء

سوى السفر ولقتل الساعات القليلة التي تفصله عن ذلك.. قرر الخروج في وداعية أخيرة لبلدته التي احتضنته في أوج حزنه.

لم يكن على دراية بحالها في عزلته الطويلة سوى من نافذة شرفته التي إن أعطته شيئًا فلا تعطيه سوى أصوات العربات التي تزداد بمرور الأيام، لكنها أبدًا لم تعكس له صورة واضحة عما يدور بالخارج، ولإنهاء حالة التخبط التي تعرض لها قرر الذهاب إلى المكان الوحيد الذي لم ولن يتغير كحقيقة ثابتة لا دخل لبشر فيها، إلى فرع النيل الذي يقطع البلد على المدينة باستحياء وكأنه منفذ النور الوحيد بها، تتبع قاسم اللافتات التي تعتلي شرفات المنازل على يساره وتعكس صورة الملك في وقفته الجانبية المعتادة التي تظهر البذلة الملكية أكثر من قسمات وجهه، والتي اختطفت ذهنه للحظات، ثم قطعه من شروده تموجات النهر من على بُعد أمتار بسيطة والتي جعلته يسرع من خطواته أملًا في الوصول. لكنه سرعان ما اصطدم بعجوز يمر الشارع في نفس الوقت لم يعفِه من تمتمات تخص هيئته قائلًا:

- حاول فتح عينيك التي تبدو في حاجة للاستبدال..

وصمت قليلًا ليتدارك ما يود قوله حقًّا ليبادره:

- يبدو أنك عقلك الشارد أيضًا في حاجة للاستبدال!

تجاهل قاسم كلمات العجوز خوفًا من أن ينجرف في حوار لا فائدة منه، واكتفى بأن رمقه بنظرة خاطفة قبل أن يصل إلى مراده..

كان أبوه قد زرع داخله إيمانًا كاملًا أن النيل لا يُرى إلا نهارًا.. في وجود الفارق

بين السماء والأرض..

وقف أمام تموجات النيل مستندًا على السور الذي يفصل بينه وبين جسده متجاهلًا نظرات الفتيات اللاتي يثيرهن الفضول حول هذا الوسيم الذي تجاهل كل صيحات الموضة المسيطرة وقرر الخروج بالبذلة التي تحمل اللونين الرمادي والأزرق يتداخلان فيما بينهما.. يجهل الجميع الحقيقة الصادمة التي جعلت ذلك الرجل يحيا في أكبر قصر في المدينة! وأنه لا يفكر الآن سوى في الرحيل إلى عالم الطليان مرة أخرى لمحاولة أخيرة.. ربما فاشلة أو ناجحة.

***

خرج إلى رحاب «جنوى» مرة أخرى.. لم تستقبله المدينة استقبالًا كافيًا بحماسته في المرة السابقة.. راح يسير في شوارعها راغبًا في اكتساب القوة الكافية لهذا اللقاء الذي يخشاه تمامًا مثلما كان يشعر في المرة الأولى، عام ونصف قد مضوا دون أن يعرف لها طريقًا.. لكنه الآن يحاول أن يطيع قلبه لعله يرشده إليها من جديد ولعلها تعي هذه المرة أن حبه كان بتلك القوة التي لم يكن عليهما تجاهلها.. ولعل أفكارها تكون قد تغيرت ويلين قلبها له.. لأنه الآن صار يعرف وجهته.

رغم أنه شعر لوهلة أنه يسير في المكان الخاطئ إلا أنه واصل السير دون تردد.. كان لزبارة أميرة وقع غريب على نفسه وروحه وداخله. فلأول مرة يشعر أنها جاءت في ميعاد يحمل إشارة مغايرة.. لكنه لم يفطن تلك الإشارة سريعًا، ظن أن مجيئها كان رسالة من الدنيا كي يخرج كما أراد دون تردد، لكن عيني أميرة كانتا تخبرانه شيئًا لا يستطيع قراءته! ربما لأن عقله وقلبه مشغولان بالرحلة

التي طال انتظارها.. أو ربما أن الإشارة الصحيحة لم يحن وقتها بعد. لكن الأمر لم يعقه عن الخروج في كل الأحوال. كان جمال أميرة لافتًا في المرة الأخيرة.. ثقتها بنفسها تجعلها تبدو أكثر جمالًا.. لكنه لم يستطع أن يناقش حقيقة ذلك حتى بينه وبين نفسه، ورغم أنه كان يخشى القدوم للقاء سارة إلا أنه أراد أن يستعيد الشغف في البحث عن أي شيء أراده في الماضي. لعله يستعيد الروح التي كادت أن تفقد في الطريق..

ما إن تخلص من تلك الأفكار حتى وصل إلى باب منزلها الذي حاول تذكره، وبعد دقائق من التفكير تمكن من تذكر الكلمات التي قد تجعل الناس يساعدونه حتى وصل لمنزلها.

***

فُتح الباب ليجد في استقباله خادمة تختلف عن الخادمة التي قابلها آخر مرة.. أو ربما ذاكرته هي ما تعجز عن العمل بشكل صحيح، لكنه تحدث في جميع الأحوال ناطقًا اسم سارة عدة مرات حتى فهمت الخادمة ما يريد وأدخلته في هدوء.

كان المنزل يعج بالناس وكأن هنالك حفلًا أو اجتماعًا عائليًا؛ مما جعله يشعر بالحرج بعض الشيء، لكن سرعان ما حاول استعادة صوابه وجلس ينتظرها دون أن ينظر إلى أيٍّ من الموجودين.

كانت جميع الفتيات الحاضرات يرتدين الفساتين اللامعة، وكان الجميع يمسكون بكئوس الشراب.. وبعض الرجال يشرع في تناول الطعام كل على حدةٍ والبهجة هي العامل الوحيد الذي يسيطر على المكان.. لم يرَ والدها. مما جعله

Page (١٤٣) ١٧٢ / ١٩٢

يشعر بالطمأنينة بعض الشيء.. فكثيرًا ما كان يرهب هذا الرجل ويظن أنه كرهه في المرة الأخيرة التي لم يتمنَّ تكرارها أبدًا.

جلس يحدق في الحاضرين جميعًا.. لكنه فوجئ بقدوم سارة من على الدرج فاستعاد وضعه جالسًا مرة أخرى في هدوء وروية وراقبها بنظره وهي تقترب إليه في ثقة كعادتها رغم أي شيء، كانت تبدو أكبر من هيئتها بالطبع عن المرة الأخيرة إلى درجة تجعل المرء يعجز عن التعرف عليها في المرة الأولى لكنه استطاع بالفعل أن يميز خطواتها الواثقة التي تجعل الفستان يبدو غير لائق عليها أبدًا.. ظل هائمًا في أفكاره حتى جاءت إلى المكان الذي يجلس فيه.. جلست أمامه مباشرة دون أن تحيد بنظرها عنه..

- قاسم.. أقصد سنيور قاسم.

- هل نتحدث العربية الآن أم الإيطالية؟

- هل تقول لي إنك تعلمت الإيطالية؟

- ربما قليلًا، لا يمكنني القول إنني أفهم همهمات من يجلسون حولنا بالطبع لكني أظن أنني سأفهمك إن تحليتِ بالصبر.

- ها! الصبر ذاته يا قاسم..

قالتها سارة بابتسامة عريضة وكأنها ترمي إلى شيء آخر يدور في خلدها، لكن قاسم لم يستطع أن يفهمه من الوهلة الأولى فسأل:

- ماذا تقصدين؟ وهل سألتك أن تصبري من قبل؟

- لا لم تقلها مباشرة لكنك بالأحرى كنت ترغب في ذلك من داخلك.

- لا زلت تفهمينني رغم كل شيء، ولا زال لديك الحس الساخر ذاته، ألم تمر فترة طويلة يا سارة؟!

- طويلة جدًا.. ولكني لست من تضع القوانين هنا، فالزمان يدور علينا جميعًا، أخبرني إلى أين وصلت يا قاسم وما الذي جاء بك إلى هنا؟

- ما جاء بي من قبل..

- ماذا تقصد؟

- ما فهمتيه تمامًا.. لقد فشلت في الانتصار على نفسي يا سارة ورحلت من عندك حزينًا منتصرًا من الخارج، لكني مهزوم هزيمة فادحة من الداخل، وكنت على أشد استعداد أن أقتل نفسي بعدما مر الشهر الأول لكني لم أستطع فظللت مكاني أكتب وأكتب أملًا في أن تخرج ذكراك من ذهني فأستريح لكنك لم تفعلي، لذا فكرت أنها إشارة الحياة كي أستعيدك أو على الأقل كي أحاول، ألا تقدرين محاولتي؟

- بلى أقدر، لكنك لم تعطِ الزمان حقه يا قاسم وتظن أن جميع البشر مثلك لا يمكنهم العيش متحابين إلا بضمانة تظل في حراستهما إلى الأبد.

- ماذا تقصدين؟ هل أحببت أحدهم؟

- لا، بل سأتزوج من أحدهم..

قالتها سارة ليشعر بالصدمة تنغرس في قلبه دون استعداد لها، ورغم أنه كان

يتوقع أن ترفض مرة أخرى لكنه لم يظن أن الأمور سوف تئول إلى هذا الحد، فقد تمادى الزمن في عراكه معه وربما أراده أن يأخذ درس عمره هذه المرة.. يا لقسوة الزمان!!... لحظات ونادت سارة بنبرة عالية تحاول تخطي صوت المارة الذين يبدون في أوج سعادتهم وهي تقول:

- ألبيرتو.. ألبيرتو هيا تعالَ لأعرفك بصديقي.

جاء ألبيرتو ليتبادل التحية مع قاسم الذي بدا شاردًا في عالم آخر تمامًا.. وصلته الرسالة لكنها ربما لم يكن عليها أن تصل بهذه القسوة.. ربما كان من الممكن أن تخبره سارة بالرفض لا بالتوغل إلى هذه البقعة الخطرة، شيء ما في خلده كان يخبره أن تلك السفربة ليست الخيار الأمثل.. لكنه سار رغم كل الخوف الذي يعتريه..

وها هو.. وحيدًا يعود، عاجزًا عن فك شفرة مشاعره هذه المرة..

***

(١٦)

صوت أبواق السيارات يعلو الأفكار التي تتصارع داخل عقله، إلى يمينه سيدة بسيطة لا تقوى على حمل الحاجيات التي ابتاعتها من السوق ويبدو أن هنالك من عرض عليها المساعدة للتو، وعلى يساره مجموعة من الرجال الذين يقفون على ناصية الشارع ويأملون لو مر عليهم شيء جديد يدفعهم إلى الحديث بشأنه، فتمر الساعات التي يطول انتظارها كل يوم، أما أمامه فالطريق المعتاد إلى النيل والذي شعر قاسم أنه لا يستطيع مواجهته بعدُ، فكثير من الأحلام قد فُقدت وكثير من الأسرار التي حدثه عنها لم يعد لها معنى الآن.

لم تصدمه سارة حقًا بما فعلت فقد كان من السذاجة أن يظن أن الأمور كانت ستمضي عكس ذلك لكنه كان يتمنى أن يكون خاطئًا فحسب! كان يعرف تمام المعرفة أن امرأة عملية مثلها لم تكن لتضيع الوقت في انتظار رجلٍ لا تعرف إذا ما كان سيأتي أم لا.. إذا ما كان سيستعيد عافيته أو سيغير وجهة نظره، إنها امرأة تعرف ما تريد ولا يرجع الأمر إلى كونها من ثقافة مختلفة.. بل لأنها سارة لا أكثر ولا أقل.

لم ينتهِ اللقاء بينهما على نحو كارثي رغم كل شيء، فما إن تركهما حبيبها لبضع لحظات قبل أن يودعها قاسم إلا وحدثته عن الأفكار التي راودتها في الآونة الأخيرة وقالت له كيف أن الحب الذي كانت تكنه له كان بوابتها للعيش.. وكان بوابتها لمعرفة مشاعرها الحقيقية ولإثبات وجهة نظرها أن الحب لا يستحق سوى عناء النفس للحفاظ عليه ولا يحتاج إلى مزيج من الخطط التي تسير عكس الطبيعة، وكان قاسم يستمع إليها في قناعة تامة هذه المرة على

عكس كل المرات التي تحدثت فيها عن الأمر، كان يعرف تمام المعرفة أن الوجه الذي يتحدث إليه هو وجه امرأة سعيدة واقعة في الحب ولا يمكنها أن تزيف هذا الحب إلى هذه الدرجة.. وظن أنه ربما بالغ في اعتقاده أن الحب يحتاج لكل ما يمتلكه في جعبة يده لا ما في قلبه فحسب.

لكنه تأكد أن التميمة ليست بالأمر الكافي لبعدها عنه، وأنها كانت لابد أن تبذل جهدًا كافيًا للعيش معه تحت أي ظرف، لكن ربما أنها لم تكن ترغب في ذلك من صميم قلبها، والمرأة لا يمكنها أن تزيف القيام بشيء لا ترغب به كما قالت أميرة من قبل.

أميرة.. تبادر اسمها إلى ذهنه عندما دلف إلى شارعه القديم.. الشارع الذي بدا على نفس هيئته لم يتغير منه سوى واجهات بعض المحال.. أما العمائر القصيرة فكانت كما هي، كل شيء يناديه للعودة.. لكنه لا يعرف إلى أين يذهب الآن، وسرعان ما ظن أن أميرة وأمها ستسعدان لرؤيته في مثل هذا الوقت.. تلفت حوله في هدوء وحدث نفسه أنه سيذهب لرؤيتهما لا شك في ذلك.. فماذا سيحدث إن ذهب؟ لربما تتزن حالته التي كانت ترى السواد في الأيام الكثيرة الماضية.. ربما أن شوقه لمنزله وشارعه ينطفئ فيطفئ معه آلامًا قد اعتادت قلبه وصارت لا تفارقه مثل ظله.

سار لبضعة أمتار.. وساقته قدماه إلى المنزل الذي صار يغطيه الغبار أكثر من ذي قبل.. ولا يتبقى من شكله القديم سوى إطار النافذة نفسها.. أما النافذة فباتت مغطاة بالغبار أكثر وأكثر.. وصار الزجاج يحاول يستغيث دون جدوى، نظر إلى الباب في شفقة على حاله هو الآخر، تردد قليلًا قبل محاولة فتحه بهدوء لكنه لم يطِعه في ذلك إذ أصدر صوتًا يبدو وكأنه انزعاج من مجرد اللمس.. وظل

يصدر الصوت لعدة لحظات من هذا الانزعاج الذي تحول لصرير دائم الأثر في أذنيه، وبعد فترة قصيرة كانت قدماه تستقران في صالة المنزل التي تتسع لأربعة أشخاص بالكاد.. وقف يتأمل كل ركن من أركان المنزل في شجن، إذ كان ركن أبيه الذي يفضل المكوث فيه وإعطاء الأوامر لكل من يمرون أمامه، وبعدما يغادر يقف هو في صراع مع نفسه للمكوث في المكان لكنه يمنع نفسه عن فعل ذلك خشية أن يعود أبوه في أي وقت.. وبالفعل يعود ويمازحه بهذا الغرض وما إذا كان قد جلس مكانه أم لا، وكانت تلك هي أفضل لحظات حياته مع أبيه رغم الخوف الذي كان يمتلكه من إقامة حوار طويل معه..

تمهل قاسم قبل أن يستكمل رحلته في المنزل حين سمع صوت أحدهم قادمًا من الخارج فانتابته الدهشة؛ إذ إنه لا يوجد من يعلم بوجوده هنا.. وبالتأكيد فإن هذا البيت قد اعتبر مهجورًا بالفعل.. فكيف لأحدهم أن يتوقع قدومه على أية حال.

حاول تجاهل الأمر في البداية لكنه لم يستطع حينما تمكن من تمييز وقع الخطوات القادمة مما جعله يلتفت على الفور! وإذا بها أميرة، وكأنها تعرف بقدومه قبل أن يعرف هو بذلك، نظر إليها مبتسمًا وكأنه كان ينتظر أن تأتيه وتوفر عليه عناء التساؤل ما إذا كانت ستفرح لرؤيته أم لا وماذا لو أجبرتها والدتها على عدم الخروج لرؤيته، ورغم أنه يعرف منها أن والدتها لا زالت تتقصى أخباره إلا أنه لم يكن متأكدًا من طريقة استقبالها له.. لم يكن يتوقع أن يظل أحدهما على هذا القدر من التسامح والطيبة طيلة هذه السنوات.

- حمدًا لله على سلامتك - قاسم؟

تنهدت أميرة وهي تنادي باسمه بعدما ارتسمت على وجهها البشوش أمارات الفرحة. وجزء كبير منها كان ينتظر مجيئه، ربما الحدس لا أكثر، لكنها كانت تعلم بقدوم تلك اللحظة لا محالة.

- هل عدت من إيطاليا لتوك؟ ظننتك لن تعود..

- ولِمَ ظننت هذا؟!

- لأنها سفريتك الثانية ولم أتوقع أن تسافر لنفس المكان مرتين دون أن تنل مرادك.

- أنت تعرفين كل شيء إذًا! وماذا أخبرك السيد عيسى أيضًا؟

- لم يخبرني بكل شيء، لكني أعرفك جيدًا يا قاسم، ولن أنسى اليوم الذي رأيتك فيه أول مرة وأنت في رحاب القصر رفقة تلك الفتاة والباشا يحرس لقاءكما.

- لم يكن هنالك شيء حينها بالفعل يا أميرة..

- نعم.. لكن تخميني أنه كان سيحدث شيء وها هو حدث، وذهبت خلفها إلى مسقط رأسها.

ضحك قاسم ضحكة أثارت غضب أميرة بعض الشيء وهو يردد جملتها ويستكمل:

- هل تظنين أنه يمكنني أن أصطحبك لإيطاليا يومًا ما لو أردت؟

- إذا كانوا يتحدثون الفرنسية فلا مانع لديّ.

شاركته الضحك هذه المرة وهو يردد.. لا تقلقي؛ إنه زمن المعجزات على أية حال.

نظرت إليه في حيرة وشردت في صمت أفاقها حديثه مجدداً:

- لقد جئت إلى هنا لرؤية الحاجة فاطمة، هل يمكنني ذلك؟

- بالطبع.. ولكن أخبرني أولًا هل تنوي العودة إلى هنا؟

- لا أعرف يا أميرة.. لا أعرف.

***

(١٧)

- هذه هي الحكاية التي حاولت إخفاءها طيلة هذا الوقت حفظًا لسر هذا الرجل النبيل الذي أراد أن يغير حياتي في مقابل تخليدي لذكراه..

انتهى قاسم من سرد قصته مع الباشا على أميرة منذ اليوم الأول الذي جاء فيه إلى القصر، وكيف اقتاده السيد مراد إلى كتابة يومياته، وما الذي جعلته يعتزل الحياة كل هذه السنوات فاقدًا للأمل، وكانت تسمعه في إنصات يتبعه ذهول، ومن بعدها لحظات تفهم عند سماع اسم سارة.. وهكذا حتى انتهى من حديثه وهو يلتفت يمينًا ويسارًا متحاشيًا النظر في عينيها اللتين ربما تلومانه على عدم السؤال طوال هذه الفترة، ومن حقها أن تحزن؛ لأنه لم يكن مجرد صديق عادي تراه كل يوم مع والده فحسب، كانا مثل عائلة واحدة.. وكان أبوه يأمنهما عليه عندما يغادر إلى عمله، وكانت هي الفتاة الوحيدة التي تستمع إلى حديثه عن رغبته في شراء كتاب معين وعن قدرته على نسج قصة قصيرة مهما كانت سخافتها بالنسبة لها كطفلة.. لكنها كانت تعلم ما يدور بخلده الآن، وكانت تشعر أنه سيعود لحياته مهما حدث فإنه لا زال يمتلك القلب الذي كبر إلى جوارها رغم كل شيء ولا يمكن لأحد أن يفهمها غيره، لكنها كانت تتساءل عن طريقته في فهمها.

وبعد أن انتهى ظل كل منهما شاردًا في ركن من أركان حديقة القصر.

***

- هنالك مطابع يمكننا إرسال الرواية لها بكل تأكيد.

- ماذا؟

- ما رأيك لو أعطيت الرواية إلى مطبعة وانتظرت صدورها ومن ثم عرف الناس جميعًا بها وحققت ما أرادك السيد مراد أن تفعله؟

- هل تظنين أنه يجب أن يتم طبع العديد من النسخ منها؟

- من دون شك يا قاسم، فما حكيته للتو يحتاج إلى أن يتم تأريخه، إن قصة حبهما ملهمة للغاية وحتى لو يجدها الناس كذلك فعلى الأقل سيتعرفون على أسلوبك الروائي، وستصبح اسمًا ينتظرون منه عملًا قادمًا على الأقل خاص بخيالك أنت.

- كيف تتحدثين بهذا الشغف عن شيء لم تقرأيه؟!

- وهل تظن أنني لم أقرأ لك روايةً من قبل؟

- ماذا تقصدين؟

- أقصد أن الرواية التي كتبتها قبل «قصر مراد باشا أزاد» والتي قرأها الباشا، استطعت الحصول على نسخة منها وقرأتها وكنت أنتظر طيلة هذه الأعوام كي أخبرك بإعجابي الشديد بها، لكن الفرصة لم تسنح لذلك.

تسمرَ قاسم أمامها للحظات لم يستطع التعبير عما يدور في خلده حينها، وأخذ يطيل النظر إليها، إذ إنه كان يستمتع بدعمها له في قراءة بعض القصص بالطبع، وبذوقها الأدبي الفريد، لكنه لم يتوقع أن تكون أحد المعجبين بقلمِه لدرجة كبيرة، فتلك هي أميرة الفتاة التي كانت تلعب معه فحسب دون أن تعطيه اهتمامًا كافيًا إلا بالاستماع إليه أو القراءة له في هدوءٍ وإبداء بعض الآراء والنصح المعتاد، كما

أن الإعجاب برواية كاملة كُتبت باللغة العربية شيء جديد على شخصيتها،، وهل يعرف شخصيتها حقًا؟ هذا ما كان يدور في رأسه من تساؤلات أخرجته منها أميرة وهي تستكمل:

- المهم الآن أن تأخذ خطوة تجاه هذه الرواية كما أقول لك، وإلا فأنت لا تستحق العيش في هذا القصر أعتقد أن هذا هو شرط الوصية.

- نعم هو بعينه، والمحامي لم يهدأ له بال إلا عندما رأى الرواية وأنا أختتمها لكنه ترك لي اختيار ميعاد النشر؛ إذ إن السيد مراد قد أخبره أن يتركني أفعل ذلك حين أجد نفسي جاهزًا له، وهذا شيء كنت ولا زلت أقدره بشدة.. ولكن حان الوقت كي أستمع إلى الحاضر وأترك كل شيء خلفي.

- وهل تحتاج الرواية إلى شيء آخر سوى الانتشار؟

- لا، تحتاج فقط لختام مناسب.

- حسنًا ستبدأ بالعمل عليه فور أن أخرج من هنا لأنني تأخرت على أمي وسأمر عليك مجددًا في الصباح الباكر لأرى ما وصلت إليه، إنك كاتب يا قاسم ويجب على الكاتب أن يكتب حتى آخر نفس في صدره، ألا تظن أن تلك هي رسالتك في الحياة؟!

اتسعت ابتسامته حينما باغتته أميرة بالجملة التي كان لطالما يقولها في صغره فيسخر منه الأولاد وحتى أبوه وجيرانه، لكنه لم يتوقف يومًا عن الإيمان بها، كان يقول لهم كلما طلب منهم أحد أن يفعل شيئًا ما إنه كاتب وإن الكُتاب لا يفعلون شيئًا سوى الكتابة، وإن هذه هي رسالته في الحياة التي يجب أن

يدعموه في تحقيقها ولكن هيهات، فلم يكن هنالك من يستمع إليه أبدًا، وكان الجميع يواصل السخرية منها حتى ينتهي به الأمر بأن يحدث نفسه، لكنه لم يتوقع يومًا أن أميرة تستمع إليه وأنها وحدها تعلم ضرورة إتمام هذه الرسالة وتقدرها.

أجابها على الفور:

- نعم رسالتي وأشكرك يا أميرة، كنت قد أوشكت على فقدان أمل وانعدام الرغبة في استكمال أي مشوار قد بدأته لولا زيارتك التي أعادت كل شيء إلى نصابه الصحيح.

- لا شكر يا قاسم.. ستصل إلى وجهتك في نهاية الأمر.. لم أعد قلقة عليك بعد الآن.

وانصرفت أميرة وتركته مستغرقًا في التفكير في أمور الرواية وطريقة النشر والظروف التي يحتاجها كي يتسهل كل شيء، وكيف ومتى سيسافر إلى القاهرة لينظر في أمر المطابع هذا، فلا يمكن لشخص أن يذهب ويطلب أن تنجز طباعة أعماله.. لكنه سيفعلها بنفسه.. وراح بالفعل ينظر في القبو من جديد لعله يجد أيًا من الأوراق التي لجأ السيد مراد إلى طباعتها هنالك بالفعل ويستغلها كي تكون وسيطًا له ويجعلهم يعتقدون أنه من طرف الباشا، وأن تلك وصيته علّهم يستعجلون في طباعتها ومساعدته للانتشار أكثر وأكثر..

***

(١٨)

«سيدي مراد،

تحية طيبة وبعد.. أتمنى أن تكون بكل خير.

أحدثك من إيطاليا، فقد طالت فترة مكوثي في مصر بعدما انتهينا من أعمال القصر وأقول لك: إن تلك كانت من أسعد فترات حياتي وإنني شرفت كثيرًا بالعمل مع رجل في مثل نبلك ورجاحة عقلك، وأعدك أنني سأعود إذا سمحت لي بذلك لأنني سأنتظر ردك بعد قراءة ما سأقوله للتو، سأنتظره كإشارة لي بأنني لا أريد سوى الصفح والعفو منك كي أستطيع زيارتك مع وفد من الوفود القادمة إليك في أي عام من الأعوام وأنني سأنال الشرف العظيم مجددًا إذا كتبت لي داعيًا إياي للعودة فسأعود على الفور..

سيدي مراد أكتب إليك ببالغ حزني بعدما علمت بوفاة زوجتك الحبيبة، لقد كانت امرأة فريدة من نوعها وكنت أكن لكما كل تقدير واحترام ولا زلت، وأعترف لك أن رغبتي في زيارتكما والشهادة على قصة حبكما الفريدة كانت تلح عليّ كثيرًا لكنني كنت أخشى مواجهتك وجهًا لوجه، وفضّلت أن أكتب أولًا.

أعرف أنك بحثت عني في إيطاليا منذ اليوم الذي عدت فيه.. أعلم أنك كنت تبحث عني بنية شكري ودعوتي إلى المكوث في رحاب قصركم العظيم، لكني لا أستطيع أن ألبي دعوتك بالظهور من جديد إلا في الوقت الذي أراه مناسبًا.. سيدي لقد بذلت جهدًا كبيرًا في محاولة اللجوء لأحدهم لكتابة هذا الخطاب باللغة العربية فعلى الرغم من أنني أعلم أنك تفهم الإيطالية جيدًا إلا أنني لم أرغب في كتابته إلا باللغة التي تستشعرها جيدًا لعلك تصفح عني في نهاية

المطاف..

أريد أن أحدثك بشأن التميمة يا سيدي النبيل. لقد كان الأمر كله محض صدفة غريبة وأقول لك هذا بكل صدق فقد جاءتني التميمة تمامًا كما حكيت لك ولا أنسى هوسي وشغفي تجاهها في ذلك الحين، وكنت على أتم الاستعداد بأن أعيش تحت سحرها.. وعندما أخبرتك بهذا السر وعرضت عليّ شراءها وقبلت فلم أكن أكذب عليك! لكن سرعان ما تغيرت الأمور وتبدلت الأحوال وعلمت أن تلك التميمة لا تمثل أي شيء، وأن مسألة السحر تلك لم تكن سوى إشاعة حمقاء توارثتها الأجيال التي حملت التميمة إلى قبضة يدي، ويبدو أن الأمر كان صادمًا إلى الدرجة التي جعلتني أعجز عن إخبارك إياه، فقد كنت أرى الفرحة في عينيك حينما علمت بأنك ستعيش فوق سحر تميمة تحفظ لك حب السيدة الوحيدة التي أحببتها طيلة حياتك؛ ولهذا لم أستطع، سامحني..

بالطبع هناك جانب بداخلي كان يطمع في الأموال التي سأحصل عليها وكان هنالك جزء آخر يقول بأنك لن تخسر شيئًا وإنك في كل الأحوال ستعيش مع المرأة التي رغبت بالعيش معها طيلة هذه الفترة؛ ولهذا جبنت واخترت ألا أتحدث إلا حينما يأتي الوقت المناسب للحديث.. ويبدو أن هذا الوقت قد جاء لكنه جاء متأخرًا وأزعم أنك عشت الحياة التي تريدها يا سيدي والتي جمعتك بالمرأة الوحيدة التي أردت أن تحيا إلى جوارها؛ ولهذا أرجوك أن تسامحني وأن تغفر لي بناء القصر على كذبة كبيرة كتلك.. فيكفيني أنني لن أغفر لنفسي أبدًا».

أنطونيو بيراتسي

انكمشت الورقة في يد قاسم بعدما اعتصرتها في اندهاش وألم، وهو يقف

خائر القوى في القبو المظلم للقصر، فقد كان هذا الخطاب آخر شيء يتوقع أن يقع في يده وفي هذا الوقت بالتحديد، وأخذ يفكر بينه وبين نفسه ويحاول فهم الأمور التي تراكمت عليه للتو، فإنه من المؤكد أن كاتب هذا الخطاب هو نفسه المهندس الإيطالي الذي حكى عنه السيد مراد في يومياته ولطالما كان يفخر بمعرفته إياه. لكنه الآن يتفاجأ بأن هذا الرجل قد اعترف بوهمية التميمة وأنه لا يوجد ما يسمى بالسحر.. وتاريخ الجواب هو نفسه تاريخ أول أسبوع مر على وفاة السيدة فيروزا، فلابد أن السيد مراد قد حصل عليه بالفعل واستلمه وعرف كل تفصيلة فيه.. كيف يمكن لهذا أن يحدث دون أن يخبره بالحقيقة كاملة؟!

اندفع قاسم اندفاعًا تلقائيًا إلى أول وجهة ساقه إليها قلبه وعقله في آنٍ واحد هذه المرة، انطلق إلى منزل أميرة التي وجدها جوار والدتها كعادتها وقف أمامها وهو يحمل الورقة في يده وعلى وجهه أمارات الصدمة لم تختفِ حدتها أبدًا، وما كان منها سوى أن أغلقت باب المنزل من خلفها بهدوء خشية إيقاظ والدتها وأمسكت بالورقة تقرأها في هدوء وعلى عينيها الدهشة ذاتها التي لازمت وجهه.. وما إن انتهت حتى أنزلتها إلى أسفل ونظرت إليه نظرة بألف معنى وهي تقول:

- ألا يعني ذلك أن السيد مراد كان على علم بالأمر؟!

- نعم.. بكل تأكيد ولكن لماذا أراد مني أن أخوض التجربة وأنا أجهل ذلك؟!

- ألم يتحدث عن هذا الإيطالي أبدًا سوى في سياق الرواية؟

- لا يا أميرة لا لم يتحدث، وتركني مهووسًا بحب امرأة خاطئة مستميتًا في محاولة إقناعها بالعيش معي؛ كي أذوق نعمة هذه التميمة الملعونة.. اللعنة عليّ..

ربتت على كتفه:

- اهدأ اهدأ إنك لم تفعل سوى ما أملاه عليك قلبك يا قاسم، وكثيرًا ما يُخطئ القلب.. صدقني..

رفع رأسه إليها بعدما كان افترش الأرض غير عابئ بذرات الغبار التي علقت ببذلته:

- وهل أخطأ قلبك من قبل؟

- لا، لكنه جعلني أعجز عن العيش لفترات، ولم يكن مني سوى أن سرت خلف رغباته حتى كاد أن يغرقني.

- أنا أشعر بالتيه الشديد والحنق على جهلي وسوء تقديري، أخبرتني سارة بشيء واحد لم ولن أنساه طيلة حياتي! وهو أن الحب لا يستحق كل هذا العناء! لكني لم أصدق ولم أرغب أبدًا في ترك الفرصة تضيع من يدي.. أنا حقًا لا أفهم هل أرادني الباشا أن أتعلم درسًا لم أكن على دراية به؟!

- ربما أرادك أن تسير في الاتجاه المعاكس لما فعلت يا قاسم، لكن الهوس قد سيطر عليك ونسيت أنك كاتب في الأصل لا يحتاج لمفعول سحر قد يبطل في يوم من الأيام.

- وماذا كنت لتفعلين لو كنت مكاني؟

كنت سأفعل مثلما فعلت سارة تمامًا على الأغلب، لكن الفارق الوحيد هو ماذا كنت سأفعل عندما أكتشف أن الأمر برمته مجرد حيلة، وأنه لا أساس له من

الصحة؟

- أشعر أنني أضعت وقتي هباء لو تعلمين، وفي اللحظة التي أحادثك فيها الآن أرى نفسي أبلَه أعيش تحت قبة قصر أظن فيه الظنون وها هو ليس إلا مجرد جدران تلتصق ببعضها البعض.

- هل تعلم ما الجانب المشرق من كل هذا؟

- ماذا؟

- إن مراد وفيروزا كان حبهما حقيقيًا ولم يحتج لمثل هذه الترهات كي يعيش، وربما أنه كان أقوى مما يظن مراد باشا نفسه، لكنه كان وحيدًا مثلك وأراد أن يضمن تلك الرفاهية للأبد.. مسكين فلو كان يعلم المستقبل لم يكن أبدًا ليختار أن يشتري تميمة بكل هذه الأموال لحماية حب أبدي بالفعل.

- هنالك ما يسمى بحب أبدي إذًا؟

- بالطبع.. مثلما كتبت أنت في روايتك الأولى..

- وما أدراكِ بما كنت أقصد؟

- أنت أخبرتني بذلك.. وها أنت تخبرني الآن أيضًا.

ابتسم لها ابتسامة عريضة بألف معنى.. ونهض استعدادًا للرحيل، وهو أهدأ بالًا وأخف ثقلًا من ذي قبل.

***

(١٩)

ظل يتلفت حوله في حيرةٍ شديدة، لا يعرف كم عدد المرات التي نزل فيها إلى هذا القبو وأخذ يتأمل في جدرانه، ويتخيل كيف كانت حياته ستستمر لو لم يعثر على خطاب المهندس الإيطالي في ذلك اليوم، كان يتذكر كلام مراد باشا ويحاول إيجاد إجابة واضحة عما يدور بخلده، ولِمَ أخفى عنه سر الرسالة؟! كانت التجربة غاية في القسوة هذه المرة وكشخص لم يتوقع أن يقع في الحب أبدًا فقد وقع وقوعًا مؤلمًا.. لكنه لسبب ما كان يشعر بالارتياح.. بدأ يشعر أن ما حدث كان يجب أن يحدث.. وأن النتيجة التي كان يراها كارثية حقًّا هي أن يسير خلف هذا السحر الذي أعمى عينيه عن كل شيء..

ظل يفتش في الأوراق الملقاة على الأرض منذ آخر مرة، ويستجمع شتات أفكاره التي تسير في طرق مختلفة، كان يعبث في الأغراض لا إراديًا حين وجد عددًا من الخطابات التي يبدو أنها كتبت بيد السيد مراد، ولاحترامه الشديد لخصوصيته لم يفتح أيًا منها وإنما كان يرتبها واحدًا فوق الآخر كما وجدهم تمامًا..

- اقرأهم إن أردت..

ذعر شديد أصاب قاسم حين استمع إلى هذا الصوت، التفت إلى يمينه مرة وإلى يساره سريعًا لكنه لم يرَ شيئًا، لكن الصوت كان قريبًا جدًا وحقيقيًا أكثر مما يظن.

فراح يسأل بهدوء وخوف:

- من هنا؟ أبي؟

- وهل هذا صوت أبيك يا قاسم؟

- إنه يشبهه قليلًا.. ماذا؟! سيدي؟ سيد آزاد؟ مراد باشا؟

كان يتلعثم بشدة حين أدرك أن الصوت هو صوت مراد بالفعل كما عرف من أول مرة لكن إنكاره للأمر لم يحدث أي فارق، وما إن استسلم للأمر حتى أخبره محدثه أن ينظر إلى الجدار المقابل له مباشرة.. وحينها تهيأت صورة مراد باشا بوجهه وملامحه وقسماته بالكامل، فشعر قاسم برجفة في قلبه وهو يقول:

- هل أنت هنا حقًا؟

- اقرأهم يا قاسم إن أردت.

- أقرأ ماذا؟

- تلك الخطابات، فلا يوجد مكان للأسرار بيني وبينك الآن، ستجدني أتحدث إلى فيروزا في الفترة التي لم أستطع الوصول إليها فيها، ستجدني وحيدًا ضعيفًا.. قبل أن تنقلب حياتي إلى النعيم بعينه.

- أنا لا أصدق أنني أراك.. هل عدت أم أنني من جاء إليك؟!

- وإنما أنت من استدعاني يا قاسم، أخشى أن تكرهني يا بني، ولكني أعلم قدر الحيرة الذي حملته طيلة السنوات الماضية، وأعرف الجرح الذي أصاب قلبك، لكنك كنت مخولًا به.. جئت إليك كي أخبرك أن المنظور الضيق الذي ترى منه الحياة لا يكفي رجلًا في شغفك وفي موهبتك وفي استحقاقك للعيش.. هل

أخبرك سرًا آخر؟

- أخبرني.. من فضلك.

- أنت لا تعيش جرح الحب، وإنما تعيش جرح عدم اختباره بعد.

- ماذا تقصد؟

- أقصد أن السحر هو ما قادك للحب يا قاسم وليس العكس، أراهنك على أن رغبتك في العيش مع سارة لم تكن حقيقية وإنما رغبتك في العيش وحدها هي ما تستحوذ على كل الحقيقية.

- أنا.. أنا.

- أنت لا تعرف نفسك بعد، وتسمح بالحياة أن تقودك إلى طريقٍ ليس بطريقك، أنت تخشى الاعتراف بالفشل، وتستسلم لأمور زائفة كي تمثل عليك دورًا غير دورها، توقف أرجوك.. وانظر للوقت الذي ضاع منك على أنه الحكمة التي جاءتك في وقت مبكر من حياتك... أنت محظوظ جدًا.

- محظوظ؟! كيف؟!

- مررت باختبارٍ لا يتسنى للشباب في عمرك أن يمروا به، تلك نعمة كبيرة لو تعلم.

– وهل تظن أنني فشلت فيه؟

- لا بل كنت ستفشل في الاستفادة من نجاحك به..

- أنا لا أعرف ماذا أقول يا سيدي، لكنني أحتاج..

استفاق قاسم من أحلامه واضعًا رأسه بين كفيه، وتسير في جسده رجفة غريبة فالأمر بدا حقيقيًا كأنه يحلم وعينيه مفتوحتان، نهض مسرعًا من جلسته على أرض القبو التي تتبعثر الأوراق من فوقها في عشوائية شديدة، وخرج يتحسس طريقه إلى المرحاض الكبير الذي يقبع في آخر الممر الرفيع الموازي للقاعة.. وأمام المرآة رأى شريط حياته بالكامل.. ليرى أباه هذه المرة وكأنه يخبره أنه سيزوره ذات مرة، وأنه يعتذر كون اليوم كان دور السيد مراد في الحديث..

***

بعد مرور عام..

- هيا هيا يا قاسم، ما الذي يؤخرك إلى هذا الحد؟

واصلت أميرة الطرق على باب غرفته في صباح اليوم المنتظر والذي استغرق من التحضير له لفتراتٍ طويلة، وكان استعداد قاسم إليه استعدادًا غير عادي، فقد ابتاع بذلة سوداء جديدة كان قد رأى مثلها في إيطاليا وأراد أن يجلبها معه لكن الظروف لم تكن مناسبة على الإطلاق.. أما عن أميرة فقد تمكنت من إيجاد الزي المناسب تمامًا والذي أقنعها قاسم بقدرتها على ارتدائه طالما أنهما في القصر وليس هنالك من سيتعجب منه في أسيوط.. خاصة أنه مجرد فستان عادي لا يحتوي على الكثير من محاولات لفت الانتباه، كل ما في الأمر أنه يشبه ملابس العائلة المالكة وليس العائلات التي كبروا بينها.

كان الحدث استثنائيًا، وقبل أن يخرج قاسم من غرفته وقف يفكر في فضل

هذا المكان عليه، وكيف غيّر السيد مراد من حياته فعلًا حتى لو كان على نحو لم يتخيله، لكنه يعلم الآن أنه يريده وأنه يختار كل خطوة تخطوها قدماه، فالحياة ليست مخيفة إلى هذه الدرجة وربما ما يكتبه في الروايات يمكنه أن يتحقق يومًا..

قطع شروده طرق أميرة المستمر على الباب حتى استسلم لعنادها المعتاد وفتح..

- يا لأناقتك! اللون الأسود يليق بك تمامًا..

ابتسم وهو يجيبها:

- هل تظنين هذا حقًا؟

- نعم بالطبع.. وماذا تظن أنت؟

تفحصها ببطء للمرة العاشرة وهي تقف في ثقة واضعة يدها على خصرها وتنتظر رأيه الذي ربما لا يشكل أي أهمية أمام هذا الجمال الحقيقي..

- أظن أنك كنتِ ولا زلتِ جميلة.. كما أنتِ تمامًا.

نظرت إليه نظرة راضية عما قال، واقتربت منه كي تحثه على النزول، لكنه أكمل قائلًا:

- يخالجني إحساس أشعر به لأول مرة، إحساس بأن هناك شيئًا حقيقيًا يؤنس روحي وقلبي.. شيء يختلف تمامًا عما سبق وعِشته، كأنه نضج على نار هادئة.. إني رأيت هذا المشهد من قبل، رأيتك! ورأيتني أسير معكِ، لقد كانت أنتِ.. لطالما

كانت أنتِ. هل تعي ما أقول؟

قطع السيد عيسى حديث قاسم بعدما وقف ينتظرهما على أول درجة من السلم وهو يقول:

- الحضور جاهز وينتظرك يا سيدي.

فنظر إلى أميرة التي أطبق عليها الصمت التام لكن عينيها تلمعان في بريق يقول الكثير:

- لننفذ وصية الباشا إذًا، لعله يرتاح كما أراحني.

قالها وهو يتبعها بعدما سبقته بخطوات واثقة، وما إن نزلت إلى القاعة الرئيسية حتى استقرت عليها أنظار الجميع، لكنها استغلت ذلك ومكثت على المقعد المقابل لهم جميعًا بعدما دعت قاسم إلى الجلوس جوارها، وشرعت في الترحيب بهم جميعًا.. مرة بالعربية ومرة بالفرنسية التي أصبحت لغتها الأولى منذ أخبرها قاسم أنهما سيزوران باريس ذات يوم.

كانت القاعة ممتلئة على آخرها، تجمع وفدًا من مختلف بلاد أوروبا استطاع قاسم أن يوجه إليهم جميعًا دعوات صادقة بمساندة السيد «بليغ» الذي كان يجلس في مقدمتهم وعيناه تشع فرحًا وأملًا فيما هو قادم.. وبحماسة أميرة التي لم تقل منذ أن أخبرها برغبته في عودة الروح والحياة إلى ذلك القصر.

وما إن انتهت من الترحيب بهم وقبل فتح باب المناقشة كعادة تلك الجلسات.. منحت قاسم الكلمة لعل لديه ما يقول، فنظر إليها في امتنان شديد وعيناه تعرف معنى الطمأنينة لأول مرة ومال عليها قبل أن يشرع في الحديث ليهمس لها:

- كنت أقصد أنك كنتِ جميلة ولا زلتِ.. وستظلين جميلة إلى الأبد. ومن دون الحاجة إلى سحر.

***

تمّت

المعادي - القاهرة

٢١ / ٢ / ٢٠٢١م

شكر خاص

إلى

زوجي وبيتي خالد أمين

الأمان المستتر الذي يراني الناس قويّة ثابتةً بسببه.

***

إلى

أبي السيد عرفة وأمي شويكار فتحي وأخي محمد عرفة

لولاكُم ما كنت أنا.. لولاكُم ما كنث هنا.

***

إلى

سليم أحمد سلامة ومايسة عبدالرحمن

الونس والنور والحُب الذي انتشلني من اليأس.

***

إلى د.أحمد سلامة

الصديق والمُعلم والأب الروحي.. أتبعك بخطواتٍ ثابتةٍ مُطمئنّة.